الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — قاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ . ٥٣٤٥٥

العدد الثاني | ٤ ذو الحجة سنة ١٣٥٥ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧ | السنة الأولى

الحلية

La parure

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

كانت من أوائك الفتيات الأنيقات الرشيقات اللاتي يحسبن ولادتهن في أسرة من أسر الموظفين خطأ من أخطاء القدر. لم يكن لديها صداق يحقق الزواج السعيد، ولا رجاء يضمن العيش الرغيد، ولا وسيلة تكشفها الناس فتعرف وتفهم وتحب، وتتزوج من رجل غني سري أمثل؛ فتركت قيادها للحظ فزوجها بموظف صغير من موظفي وزارة المعارف العمومية.

كانت بسيطة الهندام لأنها لم تجد زينتها، وكانت معذبة النفس لأنها لم تعايش طبقتها؛ والنساء ليس لهن طبقة ولا جنس، وإنما يقوم لهن الجمال والظرف والفتنة مقام الأصل والأسرة، فلا ترى فيهن من تفاوت ولا تمايز إلا بالرقة الفطرية، والأناقة الغريزية، والذهن المتصرف المرن، فهي التي تجعل من سواسية بنات الشعب سيدات وعقائل.

كان الألم يلح عليها عنيفاً كلما شعرت بأنها خلقت للنعيم والترف، وهي إنما تعيش في هذا المسكن الحقير بين هذه الجدران الباطلة، والمقاعد الحائلة، والقماش الزري.

كانت هذه الأشياء التي لا تفطن إليها امرأة أخرى في طبقتها ترمض نفسها بالألم، وتوقد صدرها بالغضب. وكان منظر الخادمة الصغيرة البريتونية التي تقوم على تدبير بيتها المتواضع، توقظ في قلبها الحسرات اللاذعة والأحلام الحائرة. كانت تحلم بالأواوين الصامتة تدبجها الطنافس الشرقية، وتضيئها المصابيح البرنزية، وبالخادمين الفارهين في السراويل القصيرة، يرقد كلاهما في المقعد الوسيع

وكانت تحلم بالبهو الفخم بمشيه الديباج القديم ، وبالأثاث الدقيق بجمله الرياش الكريم ، وبالصالون الأنيق العطر يجمل لأحاديث المصر مع أخص الأصدقاء وأنبه الكبراء والأدباء ، ممن يشتهي النساء استقبالهم

ولما جلست إلى العشاء على المائدة المستديرة والخوان المردّد أمام زوجها ، وقد رفع غطاء الحساء وقال في وجه منبسط ولهجة راضية : « الله ! ما أطيب هذا اللحم ! إني لم أر أشهى منه ولا ألذ » كانت هي تفكر في الأعشية الناعمة الحالمة ، وفي الأدوات الفضية اللامعة ، وفي نسائج الوشي تزين الجدر بصور الأعلام البارزة في التاريخ ، والأطيار الغريبة في غابة من غاب عبقر . كانت تفكر في الألوان الشهية تقدم في الصحاف العجيبة ، وفي اللاطفات الغزلة الهامسة تسمع في بسمة كبسمة أبي الهول ، وهي تأكل لحم السمك المورّد ، أو الدراج السمين

لم تكن تملك زينة ولا حلية ولا شيئاً مما تتبرج به المرأة ، وهي لا تحب إلا ذلك ، ولا تظن نفسها خلقت لغير ذلك . وطالما ودت أن تكون موضع الإعجاب والغبطة ، ومنتجع العيون والأفئدة . وقد كان لها صديقة غنية من رفيقات الدراسة فكانت تكره أن تزورها ، لأن الألم الممض كان يرافقها وهي عائدة . وربما ظلت الأيام الطوال تسفح الدموع الغزار إجابة لدواعي الأسف واليأس والحزن

* * *

في ذات مساء عاد زوجها وعلى وجهه سمة الجلال ، وفي يده غلاف عريض ، فقال :

خذي : هاك شيئاً لك . ثم فض الغلاف بقوة وأخرج منه بطاقة مطبوعة كتب فيها :

« وزير المعارف العمومية وعقيلته يرجوان السيد (لوازيل) وعقيلته أن يشرفاها بحضور الحفلة الساهرة التي ستقام في ديوان الوزارة يوم الاثنين ١٨ يناير » . ولكنها بدل أن تنبسط وتغتبط وتدهش كما كان يرجو زوجها رمت الدعوة على المائدة في غضب وسخط وهي تقول :

— ماذا تريد أن أصنع بهذه ؟

— ولكني ظننت يا عزيزتي أنك تسرين بهذا . إنك لا تخرجين أبداً ؛ وهذه فرصة جميلة ، حقاً جميلة : ولقد احتملت في سبيل الحصول على هذه البطاقة ما لا تتصورين من الجهد والمشقة . كل الناس يرغبون فيها كل الرغبة ، ويسعون لها كل السعي . وهم لا يعطون الموظفين منها إلا بقدر . ستَرين هناك العالم الرسمي كله

فنظرت إليه نظرة الغضب ثم انفجرت قائلة :

ماذا تريد أن أضع على جسمي في هذه الحفلة ؟

لم يكن الزوج قد فكر في هذا ، ولكنه أجاب في خفوت وتمتمة :

عندك الثوب الذي تذهبين به إلى المسرح . إنه على ما أرى ملائم كل الملاءمة ...

ثم أخذه الدهش والتوى عليه الكلام حين رأى زوجه تبكي ، وأبصر دمعتين غليظتين تنحدران من زاويتي عينيها إلى زاويتي فمها ؛ وقال في تمتمة :

ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فتحاملت على نفسها بالجهد العنيف وأجابته بصوت هادئ وهي تمسح الدمع على خديها :

لا شيء ، غير أني لا أملك ما أتزين به ، ولذلك لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة ؛ فأعط هذه البطاقة زميلاً من زملائك تكون امرأته أحسن مني جهازاً وأتم أهبة . فابتأس الزوج وقال : لننظر في الأمر يا ماتيلد ! كم تكلفنا الزينة البسيطة الملائمة التي تغنيك في مثل هذه المناسبة ؟ ففكرت بضع ثوان تحرر الحساب وتتحرى المبلغ الذي إذا طلبته لا يثير دهش الموظف الصغير ، ولا يوجب رفض الزوج المقتصد ، ثم أجابت جواب المتردد :

لا أعرف ذلك على وجه الدقة ، وأظن أربعمائة

فرنك تبلغ بي الى هذه الغاية :

اصفر وجهه قليلاً ، لأنه كان قد ادخر هذا المبلغ بتمامه ليشتري به بندقية يصطاد بها في الصيف مع بعض الأصدقاء في سهل (نانتير) ، ومع ذلك قال لامرأته :

ليكن ! سأعطيك أربعمائة فرنك ؛ فاجتهدي أن يكون لك منها ثوب جميل

* * *

دنا يوم الحفل وزينة السيدة لوازيل قد هيئت ؛ ولكنها لا تزال كما يظهر حزينة مهمومة قلقة . فقال لها زوجها ذات ليلة :

ماذا تجدين ؟ إنك منذ ثلاثة أيام في حال غريبة . . .

فأجابته : إني ليحزنني ألا تكون لي حلية . ولا أملك مما يتحلى به النساء شيئاً من معدن أو حجر ؛ وسأكون أحقر من في الحفل زياً وهيئة ، وأرى من الخير ألا أذهب إلى هذه الأمسية . فعقب على قولها بقوله :

تتحلين بالزهور الطبيعية . ذلك أجمل شيء وأطرفه في هذا الفصل . وبعشرة فرنكات تبتاعين وردتين أو ثلاثاً من أندر أنواع الورد . فلم يبرد هذا الكلام على كبدها القريحة وقالت : كلا ، فان أشد

الأشياء هواناً وضراعة أن تظهر في محضر الأغنياء بمظهر الفقراء . ولكن زوجها صاح بها قائلاً : ما أشد غباءك . اذهبي إلى صديقتك السيدة فورستييه فاستعيري منها بعض الحلي ، فان بينكما من قديم الصداقة ووثيق العلاقة ما يتسع لمثل ذلك

فصاحت صيحة الفرح وقالت : هذا صحيح ! ومن العجب أنه لم يجر على بالي

وفي صبيحة الغد ذهبت الى صديقتها فقصت عليها ما همها وغمها ، فلم تكد تسمع شكواها حتى أسرعت الى خزانتها فأخرجت منها صندوقاً عريضاً وفتحته ، ثم قدمته الى السيدة لوازيل وهي تقول : اختاري يا عزيزتي

فوقع بصرها أول ما وقع على الأساور ، ثم على عقد من اللؤلؤ ، ثم على صليب بندقي من الذهب قد رصعته بالحجارة يد صناع . فجربت على نفسها الحلي في المرآة ، ثم أخذتها حيرة فلم تقطع العزم على ما تأخذ وما تدع ، فقالت لصديقتها : ألم يعد لديك شيء آخر ؟ فأجابتها : بلى . ابحثي . فاني لا أعرف ماذا يعجبك

وعلى حين بغتة وجدت في علبة من الديباج

الأسود قلادة فاخرة من الماس ، تخفق قلبها خفوق الرغبة اللحة ؛ ثم تناولتها بيد مضطربة وتقلدتها على ثوبها الجهّز فاذا هي على ما صورت في الخيال ، وما قدّرت في الأمل . فسألت صديقتها في تردد وقلق : أتستطيعين أن تعيريني هذه القلادة ؟ لا شيء إلا هذه القلادة : فأجابتها صديقتها : نعم ولاشك . فأهوت على نحرها تقبله في محبة وطرب ثم ولت مسرعة بهذا الكنز

* * *

أقيمت الحفلة الساهرة ونجحت السيدة لوازيل فكانت أبدع من حضرها من النساء رشاقة ولباقة وبهجة . تدفقت في السرور متأنقة متألقة فاسترعت الأنظار وتصبت القلوب ، فتسابق الرجال وبخاصة موظفو مجلس الوزراء الى السؤال عنها والتعرف إليها والرقص معها . حتى الوزير نفسه فقد ألقى إليها باله

كانت ترقص في نشوة من الغبطة وفورة من اللذة ، وقد امحى من ذهنها كل شيء فلم تعد تفكر إلا في انتصار جمالها ، وفي مجد انتصارها ، وفي ظل رقيق من ظلال السعادة بسطته عليها التحيات التي قدمت إليها ، والاعجاب الذي انثال عليها ، والرغبات التي تيقظت فيها ، والفوز الكامل الذي يبهج بسحره فؤاد المرأة

تركت الحفل زهاء الساعة الرابعة من الصباح ، وكان زوجها منذ منتصف الليل قد غلبه النوم فأخذ مرقده في بهو صغير خلا من الناس هو وثلاثة من المدعوين كان نساؤهم لا يزلن يقصفن في نشاط ومرح . فلما همت هي وهو بالانصراف ألقى على كتفيها الثياب التي أحضرها للخروج ، وهي ثياب متواضعة مبتذلة تتنافر بحقارتها مع أناقة ما تلبس من زينة المرقص . وقد شعرت هي بذلك فأرادت أن تتسلل حتى لا يلمحها النساء الأخر وهن يرتدين معاطف الفراء الفاخر . غير أن زوجها اعتاقها قائلاً : انتظري ؛ فقد يصيبك البرد . وسأطلب عربة . ولكنها تصامّت عن كلامه وانحدرت مسرعة على السلم . فلما صارا في الشارع لم يجدا مركبة فشيا ، وكانا أبصرا على البعد حوذياً سامحا به فلا يقف

أخذا سبيلهما إلى (السين) هابطين قانطين يقرقفان من البرد ، فوجدا بعد لأي على رصيفه مركبة عتيقة من تلك المراكب التي تسير وهي نائمة ، ثم لا ترى في باريس إلا تحت الليل كأنها تخزى أن تظهر مساوئها في وضح النهار . ركباها الى دارهما في شارع (الشهداء) ودخلاها حزينين : أما هي فلأنها تتحسر على انقضاء ما كانت فيه ؛ وأما هو فلأنه يتذكر أن من واجبه أن يكون في الوزارة الساعة العاشرة

نضت عن كتفيها ، أمام المرآة ، الثياب التي تدثرت بها حتى تنظر إلى نفسها وهي في مجدها مرة أخيرة . ولم تكد تجيل اللحظ في جيدها حتى صاحت صيحة منكرة : إنها لم تجد على نحرها تلك القلادة . . فأقبل عليها زوجها في نصف ثيابه يسألها ماذا أصابها ، فالتفتت اليه هالعة تقول : أنا . . أنا . . . لا أجد قلادة السيدة فورستييه !

فانتفض قائما يصيح وقد هفا قلبه من الجزع

— ماذا ؟ كيف ؟ لا يمكن أن يكون هذا !

وطفقا يبحثان في ثنايا الثوب ، وفي طوايا المعطف ، وفي جيوب هذا وذاك ، وفي كل مكان هنا وهناك ، فلم يجداها . فقال الزوج للزوجة : أأنت على يقين من أن القلادة كانت في عنقك ساعة تركت المرقص ؟ فأجابته : نعم ، ولقد لمستها بيدي وأنا في دهليز الوزارة . فقال لها : ولكنك لو كنت فقدتها ونحن في الشارع لكنا سمعنا وقعها حين سقطت ؛ فلا بد أن تكون في المركبة . فقالت له : نعم . هذا جائز . فهل تذكر رقم المركبة ؟ فأجابها : كلا وأنت ؟ ألم تلحظيه ؟ فقالت : كلا .

فرنا إليها ورنت إليه وكلاهما لا يملك فؤاده من

الجزع . وأخيراً مضى لوازيل فلبس ثيابه وقال : سأرجع فى الطريق التى قطعناها على الأقدام فلعلى أجدها . ثم خرج وترك امرأته فى ثياب السهرة ، وقد تطرحت من الحور على أحد المقاعد ، لاتشتهى النوم ، ولا تطلب الدفء ، ولا تملك الفكر . ثم عاد فى الساعة السابعة من غير أن يجد شيئاً . وما لبث أن ارتد إلى دائرة الشرطة يسجل المفقود ، ثم إلى إدارات الصحف يعلن المكافأة ، ثم إلى شركة العربات الصغيرة ينشد المركبة ، ثم إلى كل مكان يهديه إليه بصيص من الأمل

وكانت هى تنتظر طول النهار على حالها الأليمة من الذهول والوله . وفى المساء عاد لوازيل ساهم الوجه كاسف البال لأنه لم يكتشف شيئاً . ولما أعياه الأمر قال لزوجته : لا بد أن تكتبى إلى صديقتك تخبرينها أن مشبك القلادة انكسر وأنك بسبيل أن تصلحيه . ذلك يعطينا المهلة لنتخذ تدبيراً آخر . فكتبت ما أملاه عليها

* * *

وفى آخر الأسبوع وقفت آمالها على شفا اليأس ، وأعلن لوازيل أن لابد من وسيلة لنشترى قلادة بدل القلادة

وفى صباح اليوم أخذا علبة الحلية وذهبا بها الى الجوهرى الذى كتب اسمه عليها فسألاه عنها . فقال بعد أن رجع إلى سجلاته : لست أنا يا سيدتى الذى صنع القلادة ، وإنما صنعت هذه العلبة فقط . فذهبا يضطربان فى سوق الجواهر ينتقلان من صائغ إلى صائغ فيسألان ويبحثان حتى وجدا آخر الأمر فى دكان من دكاكين (الباليه رويال) قلادة من الماس تشبه فى نظرها القلادة المفقودة كل الشبه . . كان ثمنها أربعين ألف فرنك ولكن الجوهرى رضى أن ينزل عنها بستة وثلاثين ألفاً . فرجوا منه ألا يبيعها من أحد قبل ثلاثة أيام ؛ وشرطا عليه أن يعود هو فيشتريها منهما بأربعة وثلاثين ألف فرنك إذا هما وجدا القلادة الأولى قبل آخر فبراير

كان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك تركها له أبوه ، فلا مناص من أن يقترض الباقى . اقترض ألفاً من هذا وخمسمائة من ذاك ، وخمس ليرات من هنا وثلاثا من هناك ، كتب على نفسه الصكوك المحرجة ، وأخذ على ذمته العهود المخربة ، وتردد على كل مراب ، واختلف إلى كل مقرض

عرض آخرة عمره للخطر ، وعاسر بامضائه وهو لايضمن الوفاء بما أذم ؛ وفى حال يرجف لها القلب فرقاً مما يتجرعه من هموم المستقبل ، وما يتوقعه من بؤس العيش ، وما يخشاه من حرمان الجسم ولوعة القلب ، ذهب يشترى القلادة الجديدة ويضع على منضدة الجوهرى ستة وثلاثين ألف فرنك

ولما أخذت السيدة فورستيبه الحلية من السيدة لوازيل قالت لها فى هيئة غاضبة ولهجة عاتبة : لقد كان ينبغى أن تردها قبل ذلك ، فقد كنت فى حاجة إليها

ثم رفعت العلبة من دون أن تفتحها ، فكفت بذلك صديقتها ما كانت تخشاه . فقد كانت تقول لنفسها : ماذا عسى أن تظن السيدة فورستيبه إذا لحظت أن القلادة غير القلادة ؟ ألا تحسبنى لصة ؟

* * *

ذاقت السيدة لوازيل عيش العوزين المرير الخشن ، وحملت نصيبها من ذلك دفعة واحدة فى بسالة وقوة

كان لابد من قضاء هذا الدين الفادح وستقضيه . استغنت عن الخادم ، وانتقلت من المنزل ، واستأجرت غرفة على أحد السطوح ، وزاولت الأعمال الغليظة فى البيت ، وباشرت الأمور البغيضة فى المطبخ ، فغسلت الأطباق ، وأتلفت أظافرها الوردية فى صدأ القدور ودسم الأوانى ، (وصبنت) الفذر من الأبيضة والأقمصة والخرق ونشرتها على الحبل ؛ ثم هبطت الشارع فى كل صباح تحمل بالماء وتقف

عند كل طبقة تتنفس الصعداء من التعب ، ولبست لباس السوقة واختلفت إلى الفاكهانى والبدال والقصاب وعلى ذراعها السلة فتساوم وتقاوم وتدفع الغبن عن كل بارة من نقودها القليلة . فاذا تصرم الشهر وجب عليها أن توفى صكا ، وتجدد صكا ، وتطلب مهلة

وكان الزوج يشتغل فى المساء بتبييض الحساب لتاجر ، وفى الليل ينسخ سورا من بعض الأصول كل صفحة بربع فرنك

ودأب الزوجان على هذه الحال عشر سنين ؛ وفى نهاية هذه المدة كان قد أديا الدين كله بسعره الفاحش وربحه المركب

وكانت السيدة لوازيل قد أخلقت جدتها وبدت فى رأسها روائح الشيب . وكان من طول قيامها بشئون المنزل الفقير أن أصبحت قوية غليظة جافية . تكاد لا تراها إلا شعثاء الشعر ، حمراء اليد ، مقلوبة الثوب ، ترفع صوتها فى الكلام ، وتغسل أرض الغرف بالماء الغمر ؛ ولكنك تراها فى بعض أوقاتها تجلس إلى النافذة حين يجلس زوجها الى المكتب ، فتفكر فى تلك الأمسية الذاهبة ، فى تلك الحفلة الساهرة التى كانت هى فيها تسبى القلوب و مراد الأعين . ما الذى كان يحدث لو أن هذه الحلية لم تفقد ؟ من يدرى ؟ من يدرى ؟ إن الحياة غريبة الأطوار سريعة التقلب ! وإن موتك أو حياتك قد يكونان رهنا بأحقر الأشياء .

* * *

وفى ذات أحد من الآحاد بينما كانت ماتيلدا تروّح عن نفسها عناء الأسبوع فى رياض الشانزليزيه وقع بصرها فجأة على السيدة فورستييه ومعها طفل تنزهه وتروّضه . وكانت لا تزال رفافة البشرة رائقة الحسن فتانة الملامح ، فاعتراها لدى مرآها اضطراب وقلق . أتذهب إليها فتكلمها ؟ نعم ؛ ولم لا ؟ لقد أدت الآن كل ما عليها ، فلم لا تفضى بكل شىء إليها ؟

دنت السيدة لوازيل من صديقتها القديمة وقالت لها : عمى صباحا يا جان !

ولكن صديقتها أنكرتها ، وأدهشها أن تسمع امرأة من عرض الطريق تحييها بهذه الألفة ، وتناديها من غير كلفة ، فقالت مغمغمة :

ولكن ... سيدتى ... لا بد أن يكون هذا الأمر قد اشتبه عليك . فقالت لها : كلا ؛ أنا ماتيلد لوازيل

فصاحت السيدة صيحة الدهش وقالت : أوه ! صديقتى المسكينة ماتيلد ! لشد ما تغيرت بعدى !

فقالت : نعم ! لقد كابدت رحاء الهموم ، وعانيت بأساء العيش منذ غبت عنك ، وذلك كله بسببك

— بسببى ؟ وكيف ذلك ؟

— إنك تذكرين ولا شك تلك القلادة الماسية التى أعرتنى إياها يوم حفلة الوزارة

— نعم ، وبعد ؟

— إنى أضعتها

— وكيف أضعتها وقد رددتها إلىّ ؟

— لقد رددت إليك قلادة أخرى تشبهها كل الشبه . وهاهى تلك عشرة أعوام قضيناها فى أداء ثمنها . وليس ذلك باليسير علينا كما تعلمين ، فاليد خالية والورد ناضب والجهد قليل . وقد انتهى الأمر والحمد لله ، وأصبحت على هذه الشدة راضية مغتبطة . فقالت السيدة فورستييه فى تؤدة وبطء :

— أتقولين إنك اشتريت قلادة من الماس بدل قلادتى ؟

— نعم ، ألم تلاحظى ذلك ؟ آه ! إنها لا تختلف عنها فى شىء ، وكانت شفتاها قد افترتا عن ابتسامة تنم على الكبر والسذاجة . ولكن السيدة فورستييه أخذت يديها فى يديها وقالت لها فى لهجة الاشفاق والعجب :

مسكينة يا صديقتى ماتيلدا ! إن قلادتى كانت كاذبة ! وما كان ثمنها يزيد على خمسمائة فرنك !..

الزيات

ليتني ما ولدته

للكاتب الايطالي لويجي براندللو

بقلم الدكتور حسن صادق

— هل (ننفا روزا) هنا ؟

— نعم . اطرقي الباب بقوة

طرقت (ماراجرازيا) الباب ولم يجبها أحد ، فجلست القرفصاء على الدرجات المؤدية إلى عتبة الباب

كانت هذه المرأة الرزأة تقضي أكثر وقتها في ذلك المكان ، نائمة تارة ، وباكية في السكون الشامل تارة أخرى . وكان السابلة يمرون بها من حين إلى آخر ، فيلقون في حجرها قطعة زهيدة من المال أو كسرة من الخبز ، فيقطعون عليها نومها الهادىء أو بكاءها الأليم . وفي تلك الحال تقبل المال أو الخبز وترسم على صدرها إشارة الصليب ثم تعود ثانية إلى النوم أو إلى البكاء والأنين

عليها أسمال بالية تهتكت من كل جانب ، أفسدها العرق وأقذار الطرق وذهب بلونها الزمن . وكانت تغدو في هذه الثياب المتداعية وتروح ، لا تعرف الخلاص منها بوجه ولا حيلة . وكان وجهها الشاحب المعروق قد انتشرت على صفحته التجاعيد حتى أصبح لا يُرى منه غيرها ، وجفونها الحمر قد تقرحت من طول البكاء ، ولكن عينيها احتفظتا بالصفاء المستهم الذي يمثل الطفولة العارية من الذاكرة ولا يتلاءم مع هذه التجاعيد وتلك الجفون الحمر . وكان الذباب الذي يهيم في الفضاء من حولها يستطيب عينيها فلا تشعر به ولا تطارده ، لأنها منغمسة غارقة في همومها طيلة الوقت . ولم يبق في رأسها إلا القليل من الشعر الشمط قد انفرق من الوسط فرقين ، وتدلى من الجانبين على أذنيها الممزقتين من أسفل ، نتيجة حمل قرط ثقيل في أيام شبابها

وكانت جاراتها يجلسن دائماً على الأبواب ولا يعرنها اهتماماً ، ويقضين الوقت كله في أماكنهن يرتقن الملابس أو ينقين البقول للطبيخ أو يطرزن ، ولا يكففن عن الكلام وهن منهمكات في أعمالهن أمام بيوتهن المنخفضة التي لا ينفذ إليها النور ولا الهواء إلا من خلال الأبواب . وكانت هذه البيوت الوبيئة تستخدم أيضاً حظائر للحيوان ، وأرضها مصنوعة من الأحجار الناتئة كأرض الطريق . وإذا ولج إنسان دارا من هذه الدور ، رأى في أحد الأركان حماراً أو بغلاً يتوجع من جرح أو مرض ، وفي ركن آخر فراشاً حقيراً تتراكم من حوله أنواع مختلفة من الخضر وغلة الحقول ، كل نوع على شكل ناووس يستخدم مقعدا للزائرين ، ثم كرسيين أو ثلاثة من القش ، ثم آلات الزراعة مبعثرة على الأرض ، وعلى الجدر التي اسودت من كثرة الدخان الذي يتصاعد إليها بعض صور زهيدة الثمن لا تمت إلى الفن بأية صلة . ويرى السائر في طريق القرية التي يختلط فيها الدخان الكثيف بالرائحة البغيضة المتصاعدة من حظائر الحيوان ، أطفالاً يلعبون قد سفعت جلودهم أشعة الشمس ، بعضهم عاري الجسد كما ولدته أمه ، والبعض الآخر متستر بقميص واحد كثير الفتوق

* * *

فى ذلك اليوم الذى طرقت المرأة المسكينة فيه باب ننفاروزا كان الناس يتكلمون عن فئة جديدة من المهاجرين الذين ينتوون الرحيل إلى أمريكا فى اليوم التالى :

— سيرحل (ساروسكوما) ويترك من خلفه إمرأة وثلاثة أطفال

— وسيصحبه (فينوسكورديا) ويهجر أولاده الخمسة الصغار وامرأته وهى حامل

— يقال إن (كارمن رونسا) سيأخذ معه ولده ، وهو فى الثانية عشرة من عمره وقد بدأ يكسب قوته من عرق جبينه ... أيتها العذراء المقدسة : أليس من المفروض عليه أن يترك هذا الولد لامرأته ؟ كيف تصنع هذه التعسة الآن ؟ !

— لم أسمع ليلة أمس غير البكاء والعويل فى بيت (مينوزيا) ، وابنه الذى عاد من المعسكر منذ قليل يرغب فى السفر أيضاً !

سمعت ماراجرازيا العجوز تلك الأقوال صامتة ، وأدخلت طرف شالها فى فمها لتحبس فى صدرها الزفرات . ولكن حزنها استبد بدخيلتها فسال من عينيها دموعاً سخينة

مضى أربعة عشر عاماً على سفر ولديها إلى أمريكا . ولقد وعداها العودة إليها بعد أربعة أعوام أو خمسة ، ولكنهما أصابا هناك الغنى والثروة وعلى الأخص أكبرهما سناً ، ونسيا أمهما العجوز

وفى كل مرة ترحل فيها فئة من أهل (قارنيا) إلى أمريكا ، كانت تقصد ماراجرازيا إلى ننفاروزا وتستكتبها خطاباً ثم تسلمه إلى أحد المهاجرين وتضرع إليه أن يحمله إلى أحد ولديها

وفى كل مرة ، أثناء عهد طويل ، كانت تتبع هؤلاء المهاجرين فى الطريق ، وهم يحملون غرارات وأمتعة ، حتى يبلغوا محطة المدينة المجاورة ، يشيعهم الأبناء والأمهات والأخوة والأخوات بالعويل والنشيج . وكانت المرأة المسكينة تحدق ببصرها فى عيون الشبان من المهاجرين ، وكل منهم يتصنع البشر والابتهاج ليخفى انفعاله الشديد ويشجع أقرباءه الذين يصحبونه

وفى كثير من الأحيان كان يدور بين ماراجرازيا والشبان المهاجرين حوار قصير :

— أيتها العجوز المجنونة ، لماذا تحدقين فى هكذا ؟ أتريدين أن تقتلعى عينى ؟

— كلا يا بنى ، إنى أحسدك عليهما لأنهما ستريان ولدى الغائبين ؛ وأستحلفك بالله أن تصف لهما حالى الأليمة ، وأن تقول لهما إذا تأخرا أكثر من ذلك فأنهما ان يجداني على قيد الحياة !

* * *

بينما كان النساء يتحدثن فى شأن الذين يرحلون إلى أمريكا فى اليوم التالى ، تكلم فجأة رجل شيخ كث اللحية أغبر الشعر أشمطه ، كان إلى تلك اللحظة يصغى إلى الحديث ولا ينطق بكلمة ، وكان مستلقياً على ظهره معرضاً صدره لأشعة الشمس مبتهجاً بتدخين عليونه ، قال هذا الشيخ وقد رفع رأسه المسند الى حجر وبصق :

لو كنت ملكا لحظرت على أى خطاب يرد من أمريكا دخول قرية (قارنيا)

فصرخت إحدى النساء وقالت : ما هذا يا جاكو سمينا ؟ وكيف تعيش الأمهات والزوجات البائسات إذا انقطع عنهن المال والأبناء ؟

فقال الشيخ مغمغما وقد بصق ثانية : « آه ! نعم : أمن أجل المال الذى يرسلونه ؟ إن الأمهات مرغمات على العمل فى البيوت خادمات ، والزوجات

على الذهاب يعرضهن إلى بورصة الشقاء ! ولكن لماذا لا يروون فى رسائلهم شيئاً عن الشر الذى يجدونه هناك ؟ ! لماذا لا يكتبون إلا عن وجه الأشياء الحسن فيجيب صغار الأحلام على ذلك بالرحيل ؟! لم يعد فى القرية أيد قوية لفلاح الأرض وزرعها ! أقفرت القرية إلا من الشيوخ والنساء والأطفال الصغار . والرجال برغم هذه الحاله يواصلون الهجرة ويقبلون عليها إقبالاً مروعا ! »

وفى هذه اللحظة فتحت تنفاروزا بابها ، وكانت سمراء اللون كحيلة الطرف ساحرة اللحظ أرجوانية الشفتين بضة الجسم رشيقة القوام ، يبدو على هيئتها الفرح والعزة ، وكان على صدرها الجميل شال من القطن أحمر اللون به نقوش على شكل أقمار صفراء ، وفى أذنيها قرط من الذهب كبير الحجم ، وقد جمعت شعرها فى مؤخرة الرأس وجعلته على شكل كرة كبيرة ، وحفظته من التشعث بديوس من الفضة

آمت هذه المرأة بعد عامين من الزواج ثم تزوجت من رجل آخر هجرها منذ خمسة أعوام وسافر إلى أمريكا ، وكان يزورها أحد أغنياء البلد من حين إلى آخر خلسة فى ظلام الليل ، ويدخل بيتها من الباب الصغير حتى لا يشعر به أحد ، وكان جاراتها الشريفات اللاتى يخشين الله يرمقنها بعين الحقد ويحسدنها فى قلوبهن ؛ وسبب حقدهن عليها يرجع إلى اعتقادهن أنها كتبت إلى بعض المهاجرين فى أمريكا رسائل بغير إمضاء لتفسد عندهم سمعة نسائهم انتقاما لنفسها من مهاجرة زوجها الثانى

دنت تنفاروزا من الشيخ وقالت : « من هذا المخلوق الذى يهذى ؟ آه هذا أنت يا جاكو ؟! صدقنى إذا قلت لك إن أحب الأشياء إلينا أن نظل فى القرية بلا رجال ، وستتدرب النساء على العمل فى الحقول فاطمئن بالا »

فأجاب الشيخ بصوته الخشن : « النساء لا يحسن إلا شيئاً واحداً فقط : » ثم بصق

فسألته بصوت مرتفع : «أى شىء يا جاكو »

— يحسن البكاء وشيئاً آخر

— إذن يحسن شيئين : ولكن انظر إلى أنا . إنى لا أبكى

— إنه : أعرف ذلك جيداً : إنك لم تبكى حتى عند موت زوجك الأول :

— إذا فرضنا وكنت أنا التى سبقته إلى العالم الآخر ، أكان يحجم عن الزواج ثانية ؟ إذن — أنظر إلى هذه المرأة التى تبكى نيابة عن الناس جميعاً : إنها ماراجرازيا

— لدى هذه العجوز ماء كثير وهى تصبه من عينيها

ضحك السامعون من سخرية جاكو ثم قالت ماراجرازيا وهى تهز رأسها : « لقد فقدت ولدين جميلين فكيف لا أبكيهما ؟! »

فقالت تنفاروزا : نعم فقدت ولدين جميلين يستحقان البكاء — إنى أوافقك على ذلك . ولكنهما فى نعيم هناك ويتركانك هنا تموتين بكاء وجوعا »

— أنا الأم وليس فى استطاعتهما أن يدركا مبلغ ألمى !

— إذن لماذا تذرفين كل هذه الدموع وتحملين على نفسك هذا الألم الشديد ؟ يقول الناس إنهما فزعا إلى الرحيل فرارا من قسوتك وسوء معاملتك

فصرخت ماراجرازيا وضربت صدرها بيدها وقالت : « أنا ؟ من الذى قال ذلك ؟ »

— بعض الناس

— يا للخزي : أنا ؟ أبنائى ؟ أنا التى ...

فقاطعتها إحدى النساء بقولها : « ما هذا الانفعال ؟ دعيها تقول ! ألا ترين أنها تمزح ؟ »

وضحكت نتفاروزا طويلا ثم أرادت أن تكفر عن مزاحها الأليم فقالت لمارا جرازيا بصوت رقيق : « تكلمى يا جدة واطلبى منى كل ما تريدين »

مدت مارا جرازيا يدها المرتعشة إلى وسطها وأخرجت من حزامها ورقة وغلافا وقدمتهما إلى نتفاروزا فى ضراعة وقالت :

— أتتفضلين على بالكتابة مرة أخرى ؟

— ثانى خطاب أكتبه !

— نعم إذا شئت وتكرمت

عبست نتفاروزا وضاقت بهذا الطلب ، ولكنها أدركت أنها لن تجد السبيل إلى الخلاص من إلحاح العجوز ، فدعتها إلى بيتها ، ولم يكن هذا البيت يماثل البيوت الحقيرة التى تجاوره ؛ وكانت غرفته كبيرة مظلمة قليلاً حين يكون الباب مغلقاً ، ولا ينفذ إليها النور إلا خلال كوة ذات قضبان حديدية فى أعلى الباب ، وأرضها مصنوعة من الآجر وفيها سرير من حديد وصوان للملابس ومنضدة صغيرة سطحها من الرخام الأبيض . وهذا كل ما استطاعت نتفاروزا الحصول عليه من ربحها كحائكة فى الريف

تناولت القلم ووضعت الورقة على الرخام واستعدت للكتابة وهى واقفة وقالت :

— تكلمى وأسرعى

— أكتبى : ولدى العزيزين ، لم تمدعيناى تقويان على البكاء ... كتبت نتفاروزا ما أملت عليها وهى تتنهد تنهدة التعب والملل ، وواصلت العجوز الاملاء :

— لأنهما تتحرقان شوقاً إلى رؤيتكما مرة أخرى على الأقل ... فتعجلتها نتفاروزا وهى تقول : « استمرى ، استمرى ... إنك كتبت لها هذه الكلمات ثلاثين مرة على الأقل ! »

— أكتبى على كل حال . إنها الحقيقة ياعزيزتى ، وأنت ترين جيداً مبلغ ألمى ... أكتبى : ولدى العزيزين ...

— أمن جديد ؟

— كلا ... سأملى شيئاً آخر ... لقد فكرت فى ذلك الليل كله . إسمعى : ولدى العزيزين ، أمكما المسكينة تمدكما وتقسم لكما ... أكتبى ما أملى ... تمدكما وتقسم لكما أمام الله أنكما إذا رجعتما إلى (فارنيا) فانها تهب لكما بيتها وهى على قيد الحياة

وهنا انفجرت نتفاروزا ضاحكة وقالت : « بيتك الخالى ؟ وماذا يصنعان به وهما الآن فى خفض من العيش ؟ ماذا يصنعان بجدره الأربعة المصنوعة من القش والطين ؟ »

— أكتبى على كل حال : أربعة أحجار فى الوطن خير من مملكة فى ناحية أخرى ... أكتبى

— كتبت ما أمليت . هل تريدين إضافة شىء آخر إلى الخطاب ؟

— نعم : أمكما المسكينة أدركها الشقاء وهى تتضور من قسوة البرد ، وتروم شراء ثوب ولا تستطيع ، فجودا عليها بخمس ليرات على الأقل ...

فقالت نتفاروزا : وهى تجفف المداد وتضع الورقة فى الغلاف : « قول جميل . لقد كتبت كل شىء »

— هل وضحت جيداً هذه الجملة : جودا عليها بخمس ليرات ؟

— وضحت كل شىء

— حقاً ؟

— أوه ! قلت نعم !

— يا ابنتى إظهرى قليلاً من الصبر مع عجوز مسكينة ! ماذا تنتظرين من بلهاء مثلى ؟ ! فليكافئك الله والعذراء !

تناولت الخطاب ووضعته فى حزامها ، وأرادت أن تأمن عليه ابن مينوزيا ليحمله إلى ولديها ، فغادرت بيت تنفاروزا وأخذت سمتها إلى بيته

* * *

أسدل الليل سدوله ودخلت النساء بيوتهن ، وأغلقت جميع الأبواب إلا قليلاً ، وأقفرت الأزقة الضيقة من السابلة ولم يبق فيها غير رجل واحد يحمل سلماً على كتفه ، يسير خلال القرية يشعل مصابيحها القليلة المبعثرة ذات الضوء الضعيف المهتز ، الذى يجعل سكون الأزقة الشامل حزيناً رهيباً ثقيلاً على النفس

وكانت ماراجرازيا أثناء سيرها تضغط بإحدى يديها على الخطاب الموضوع فى حزامها ، كأنما هى تريد أن تنقل إلى قطعة الورق جزءاً من حرارة الأمومة ، وتحك بيدها كتفها تارة ورأسها تارة أخرى . وكانت كلما كتبت خطاباً غمرها الأمل الكبير واعتقدت أن سيؤثر فى ولديها ، ويأتى بهما إليها

ولكنها فى هذه المرة لم تكن راضية ولامطمئنة إلى الخطاب ، لأنها رأت تنفاروزا تكتبه فى عجلة شديدة ، واعتقدت أنها لم تكتب الجملة الخاصة بالخمس قرات التى تطلبها لشراء ثوب يقيها لير الشتاء

وأثناء مرورها بالأبواب المغلقة ، بلغ سمعها صرخات الأمهات اللاتى يبكين رحيل أولادهن المقبل ، فقالت وهى تضغط على الخطاب بقوة :

« أيها الأبناء ، كيف تطاوعكم قلوبكم على الرحيل ؟ إنكم تعدون بالرجوع ولا تبرون بوعدكم ... آه ! أيتها الأمهات البائسات إياكن والثقة بوعودهم ! إن أولادكن كولدى ، لن يعودوا أبداً »

وبينما هى كذلك إذ سمعت فجأة وقع قدمين يرن فى الزقاق ، فوقفت تحت أحد المصابيح وتساءلت من عساه يكون هذا الشخص ؟ ولما دنا منها عرفت أنه طبيب القرية الجديد الذى يقال إنه سينقل قريباً ، لا لأنه يهمل فى أداء واجبه ، ولكن لأن أغنياء البلد يبغضونه على النقيض من الفقراء . وكان هذا الطبيب فى زهرة شبابه ، ولكنه كان شيخاً بتجربته وعلمه ؛ وحين كان يتكلم فى جمع من الناس كانوا يصغون إليه مشدوهين مأخوذين ببلاغته وتدفقه ؛ ولم يكن له أم تحزن عليه إذا رحل إلى أمريكا كما كان يشاع عنه

وقبل أن يبلغ مكان ماراجرازيا ببضع خطوات قالت ضارعة : « سيدى الطبيب ! أتسمح بأن تؤدى إلى معروفاً كبيراً ؟ » فانزعج الطبيب من الصوت الباغت ، ثم وقف تحت المصباح وقال بصوت مرتفع : « من المتكلم ؟ آه ! هذا أنت ... »

وذكر فى الحال أنه رأى هذه الخرق البالية عدة مرات على أبواب البيوت ؛ ولما هدأ ما ألم به من الفزع ، قالت له :

أتتفضل علىّ بقراءة هذا الخطاب الذى سأرسله إلى ولدىّ ؟

— سأحاول ذلك إذا استطعت فى هذا الضوء الضعيف

ثم لبس منظاره وأخرجت ماراجرازيا الخطاب من حزامها وناولته إياه ، وانتظرت أن يعيد على سمعها الجمل التى أملتها على تنفاروزا

ولكن الطبيب لم يقرأ ، إما لأنه لم ير جيداً وإما لأنه عجز عن قراءة الخط . ثم شرع يدنى الورقة من عينيه ثم يبعدها قليلاً ليستثمر جيداً نور المصباح ، وبعد وقت قصير طال على المرأة المسكينة سألها : « ماهذا ؟ » فسألته ماراجرازيا بدورها فى خجل وتواضع : « ألاتستطيع قراءته ؟ » فضحك الطبيب وقال : « ليس فى الورقة كلة واحدة مكتوبة ، ولكن فيها أربع خطوط فى تعاريج صبيانية : انظرى ! »

فصاحت العجوز مبهوتة : « كيف ؟ »

— انظرى وأنعمى النظر . لم يكتب فيها كلة

— أجائز هذا ؟ وكيف وقع ، مع أنى أمليته على ننفاروزا كلة كلة ، ورأيتها تكتب :

فهز الطبيب كتفيه وقال : « لقد تظاهرت بأنها تكتب »

جمدت ماراجرازيا فى مكانها ثم ضربت صدرها بيدها وقالت فى ألم شديد : « آه ! الخائنة ! لماذا تخدعنى وتسخر من عواطفى ؟ الآن عرفت لماذا لا يجيب ولدای على رسائلى ! إنها لم تكتب قط ما كنت أمليه عليها ... عرفت السبب ! إذن ولدای لا يعرفان شدة عذابى : لا يعرفان أنى أموت من أجلهما ! رب كيف يجرؤ انسان على خيانة أم عجوز مسكينة مثلى ؟ يا للعار ! »

نال ألم المرأة من نفس الطبيب منالاً كبيراً ، واجتهد فى أن يهدئ قليلاً من غضبها ويأسها ، وسألها عن ننفاروزا أين تقيم ليوجه إليها فى اليوم التالى ماتستحق من اللوم . ولكن المرأة كانت لاهية عنه بالتفكير فى التماس المعاذير لولديها البعيدين عنها ، وشعرت فى تلك اللحظة بوخز الضمير الأليم لأنها اتهمتهما أعواماً طوالاً بغير حق ، واعتقدت أنهما لو كانا تسلما خطاباً واحداً من خطاباتها الكثيرة لعادا اليها طائرين على أجنحة الشوق والحنان

ولكى يطيب الطبيب خاطرها وعدها بأن يكتب بيده خطاباً مطولاً لولديها فى صباح اليوم التالى ، ثم قال : « خلى عنك اليأس واذهبى الآن الى النوم والراحة ، وغداً صباحاً أنتظرك فى بيتى لتحقيق رغبتك » ثم تركها وسار فى طريقه

كيف تنام هذه الأم المذنبة أو تحن الى الراحة ؟ عاد الطبيب بعد ساعتين من تلك الجهة نفسها فوجد ماراجرازيا فى مكانها الذى تركها فيه جالسة القرفصاء تحت ضوء المصباح وهى تبكى وتتململ . فأخذ عليها عملها الجنونى وأرغمها على النهوض ، وطلب إليها أن تذهب الى بيتها فى الحال . ثم سألها :

— أين تقيمين ؟

— آه ! يا سيدى الطبيب ، عندى كوخ فى الجهة المنخفضة من القرية . لقد رجوت من هذه المرأة الخادعة أن تكتب إلى ولدى أنى أنزل لها عنه أثناء حياتى إذا قبلا العودة الى وطنهما ، فضحكت ملء شدقيها وقالت : ماذا يصنعان بأربعة جدر مصنوعة من القش والطين ؟ ... ولكنى ...

— حسن ، حسن . اذهبى ونامى ، وفى الغد لن نثقل الكلام عن الكوخ فى الخطاب . تعالى سأصحبك

بارك الله فيك يا سيدى الطبيب . ولكن ماذا تقول ؟ ستصحبنى ؟ اذن سر أمامى لأنى عجوز ولا أستطيع السير إلا ببطء شديد

فلم يسع الطبيب إلا أن يتمنى لها ليلاً سعيداً ويتركها ؛ فتبعته فى خطى ضعيفة متثاقلة . ولما بلغت الباب الذى رأته يدخل منه ، وقفت وغطت رأسها وصدرها بشالها ثم جلست على السلم المؤدى

الى عتبة الباب فى انتظار طلوع النهار

وعند بزوغ الفجر ، استيقظ الطبيب كعادته للقيام بزيارة المرضى . ولما فتح الباب سقطت ماراجوازيا الى الخلف عند قدميه لأنها كانت مستغرقة فى النوم وقد أسندت ظهرها الى الباب

عجب أشد العجب وقال : « أوه ! لقد أسأت الى نفسك جد الاساءة » فأجابت وهى تحاول النهوض : « سامحنى يا سيدى »

— هل قضيت الليل فى مكانك هذا ؟

— نعم ياسيدى . اطمئن بالاً فقد ألفت ذلك . كيف أستطيع أن أوارى نفسى وأنسى خيانة هذه المرأة الخبيثة ؟! سأقتلها ياسيدى . كان فى استطاعتها أن ترفض الكتابة فى صراحة وأن تقول إن طلبى يبعث فى نفسها الضيق والملل فأذهب الى شخص آخر ... أذهب الى رجل طيب القلب مثلك ...

— نعم . انتظرينى هنا قليلا . سأزور المرأة التى خدعتك ثم أعود لكتابة الخطاب

وسار متجها نحو الطريق الذى عينته له العجوز فى المساء السابق ، وشاءت له المصادفة أن يقابل نتفاروزا خارجة من بيتها فى تلك الساعة دون أن يعرفها ، ويسألها عن عنوانها . فأجابت وهى تضحك وقد احمر وجهها : « إنى أنا نتفاروزا ياسيدى الطبيب » ثم دعته الى دخول البيت

إنها رأت هذا الطبيب الشاب الجميل يجتاز الزقاق الذى تقيم فيه كثيراً من المرات ، ولكنها لم تتعرف إليه لأنها كانت فى أكمل صحة ولم تجرؤ على إدعاء المرض ؛ فلما رأته يسأل عنها من تلقاء نفسه ليتحدث إليها ، ظهر على وجهها أمارات السرور المشوب بالدهشة الشديدة . ولما رأته مضطربا عابسا وعرفت الغرض من هذه الزيارة ، انحنت عليه قليلا فى خلاعة ساحرة دون أن تعلم السبب الحقيقى للألم الذى عنده . ولما استقر به المقام ، طفق يتحدث وهى تصغى إليه ، ثم قالت فى لهجة الجزع ، وقد أغمضت عينيها السكحيلتين الخلابتين « عفوا ياسيدى الطبيب . أتزعج نفسك إلى هذا الحد من ، أجل هذه العجوز المجنونة ؟ الناس جميعاً هنا يعرفونها ولا يقابل أحد منهم نفسه من جوارها . سل من تشاء . سيقول لك جميع الناس إنها مجنونة ، مجنونة حقاً منذ أن رحل ولداها إلى أمريكا ، وقد مضى على ذلك أربعة عشر عاما . إنها لا تريد أن تصدق أنهما نسياها كما هو الواقع والحقيقة . وهى مصرة على الكتابة اليهما دائماً ؛ تريد أن ترسل إليهما فى كل يوم خطابا ، ولكى أدخل على نفسها الابتهاج ، كنت أتظاهر بكتابة ما تريد ، وكان المهاجرون إلى أمريكا يظهرون لها أنهم سيحملون رسائلها إلى ولديها ، فتظل المرأة غارقة فى غرورها . وإذا كنا نجاريها ونجيبها دائماً إلى ما تطلب ، فأن حياتنا تصبح نكدة صعبة الاحتمال . أنظر إلى يا عزيزى ، إنى أنا أيضاً قد هجرنى زوجى . وهل تعرف القحة التى كشف بها عن خبث طويته ؟ إنه أرسل إلى صورته مع خليلة أمريكية ، وأستطيع أن أطلعك عليها فترى رأسه إلى جانب رأسها ، ويده فى يدها هكذا ... أتسمح ؟ هات يدك .... هكذا ، وهما يبسمان استخفافا بالذين يطلعون على صورتهما ! وأقسم لك أنى ضحكت كثيراً حين تسلمت الصورة . آه ! يا سيدى الطبيب ، إن الانسان يبكى الذين يرحلون ولا يرثى لحال الذين يبقون ! لقد بكيت أيضاً ؛ وهذا أمر طبيعى فى الأيام الأولى ، ولكنى ثبت من بعدها إلى عقلى ... والآن أعيش فى أحسن حال .

وكلما وجدت فرصة تمو ، لموت . ينبغي أخذ الحياة كما هي ... »

خفض الطبيب بصره اضطرابا من العطف الذي أظهرته المرأة الجميلة نحوه ثم قال :

— ربما عالـكين ما يقوم بحاجتك ، ولـكن هذه العجوز البائسة ...

— من ؟ هي ؟ عندها مايجعلها تعيش كأميرة عظيمة ولـكنها لا تريد

فسألها الطبيب وهو يحدق فيها « كيف ذلك ؟ » ولما رأت تنفاروزا منظر وجهه المشدوه عادت الى الضحك بقوة كاشفة عن ثناياها الخلابة ثم قالت :

— نعم إنها لا تريد يا سيدي . لها ابن آخر ، وهو أصغر أبنائها ، يود لو تقيم معه

— ابن آخر ؟ هي ؟

— نعم يا سيدي اسمه روكو . ولـكنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً

— ولـماذا ؟

— لأنها مجنونة كما قلت لك . إنها تبكي فراق الاثنين الآخرين ليلاً ونهاراً ، ولا تقبل من ابنها روكو أي شيء برغم توسلاته

زوى الطبيب ما بين عينيه حتى لا تبدو عليه أمارات الدهشة مرة أخرى ، وحتى يخفي اضطرابه الشديد ثم قال :

— ربما لا يحسن هذا الابن معاملتها

— لا أعتقد ذلك . إنه قبيح الخلقة عبوس الوجه دائما ، ولـكنه كريم النفس سري الخلق . وهو مجد لا يعرف غير عمله وزوجه وأولاده . إذا أردت أن تراه ، فسر في هذا الطريق المستقيم أمامك ، تجد على اليمين بعد مسير ربع فرسخ على الأكثر (بيت العمود) كما يسميه الناس . إنه يقيم في هذا البيت ، وله مهنة جميلة تدر عليه خيرا كثيرا . إذهب اليه وسترى أني على حق فيما قلت لك

نهض الطبيب وهو أشد ما يكون شوقا الى رؤية هذا الابن ، ثم قال : « إني ذاهب اليه »

ووضعت تنفاروزا يدها على شعرها ، ورنت الى الطبيب بلحظها الساحر وقالت : « أتمنى لك استراحة طيبة ، وأقدم اليك وافر احترامي »

* * *

سار الطبيب في طريق ضيقة كثيرة الأحجار تقوم على جانبيها بعض الدور والأكواخ الحقيرة ، حتى خرج من القرية وأخذ طريقا آخر وسط الحقول ، وهو يلقي بنظراته يمنة ويسرة ، ويرى الأرض الجافة التي تنتظر المطر حتى تثمر ، وراعه أثناء مسيره روح الحزن الذي يخيم على الأرض وقد رحل عنها أكثر سكان القرية ورجالها

آه ! ها هو ذا بيت العمود . وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجاور عمود معبد روماني قديم لم يبق منه إلا ركن واحد . ولما دنا الطبيب من البيت وقف أمام السور وصاح « هو هو ! » حتى يأتيه من يجنبه خطر الـكلاب . فأجابه صبي في العاشرة من عمره عاري القدمين يضرب لون عينيه الى الخضرة ، وعلى رأسه قبعة من القماش قد ذهبت بلونها أشعة الشمس . سأله الطبيب :

— أهنا كلب يخشى منه ؟

— نعم . ولـكنه هادىء لا يؤذي أحداً

— هل أنت ابن روكو ؟

— نعم يا سيدي

— وأين والدك ؟

— فى الحقل

وكانت أم الصبى جالسة على مقعد حجرى أمام البيت تمشط شعر ابنتها الكبرى وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وكانت جالسة على مقعد حجرى آخر وظهرها إلى أمها ، وفى حجرها طفل رضيع . وكان أمامها طفل آخر يلعب فى الأرض وسط الدجاج والديكة . فقال الطبيب للمرأة « أريد أن أتحدث إلى روكو . إنى طبيب القرية الجديد »

لم تحر المرأة جواباً لأنها اضطربت ولم تفهم السبب الذى من أجله يريد الطبيب أن يتحدث إلى زوجها . ثم أصلحت قميصها الخشن ونهضت لتتقدم إلى الطبيب مقعداً ؛ ولكنه رفض الجلوس وانحنى على الطفل الذى يلعب فى الأرض ، مداعباً ، وجرى الصبى الكبير إلى الحقل لينادى أباه

وبعد لحظات سمع وقع أقدام ثقيلة ، ولمح من بين أشجار التين الكثيفة روكو يسير نحو البيت مقوس الظهر والساقين ، ويده فى وسطه كعادة الفلاحين فى تلك الجهة . وكان زرى الهيئة ضخم الخلقة واسع الفم غليظ الشفتين مصفر الوجه مشوه الوجنتين ، وكانت عيناه غائرتين ينبعث منهما بريق لا تطمئن إليه النفس

رفع هذا الرجل يده إلى رأسه ورفع قبعته إلى الخلف علامة التحية وقال للطبيب :

— أقبل يديك يا سيدى . ما الذى أستطيع أداءه ؟

— جئت لأخاطبك فى شأن أمك

فاضطرب روكو وسأله فى لهفة :

— أليست فى صحة تامة ؟

— اطمئن من هـــذه الناحية . ولكن الشيخوخة أدركتها كما تعلم وتفتقر إلى العناية ...

وكلما أسهب الطبيب فى الكلام ، ازداد اضطراب روكو ثم قال :

— سيدى الطبيب ، إنى خاضع لك فى كل ماتحكم به . ولكن إذا كنت قد حضرت خصيصاً لتخاطبنى فى شأن أمى ، فانى أستأذنك فى الانصراف الى عملى

— انتظر ، إنى أعرف أنك رجل محد ، وقيل لى إنك على النقيض من ...

— ادخل البيت يا سيدى الطبيب ؛ إنه بيت فقراء ولكنك طبيب ، وقد رأيت كثيراً من أمثاله . أريد أن أريك الفراش المعد دائما لهذه العجوز الطيبة القلب ! إنها أمى ولا أستطيع أن أطلق عليها اسماً آخر ، ها هى ذى امرأتى وها هم أولاء أولادى ، إنهم يقرون أنى كنت آمرهم دائما بخدمتها واحترامها ، كما يخدمون ويحترمون العذراء المقدسة . الأم مقدسة أيضاً يا سيدى الطبيب ! لم أهملها يا سيدى ولكنها تغمرنى بالخزى أمام الناس وتجعلهم يظنون بى ... من يدرى ؟ ربيت يا سيدى عند أقرباء أبى ونشأت بينهم ، وما كان ينبغى لى أن أحترمها كأم لأنها كانت تعاملنى بقسوة وخشونة ، ولكنى مع ذلك أحترمها دائما وأشفق عليها . ولما رحل ولداها الى أمريكا ، رجوت منها أن تقيم معى وأن تكون سيدة البيت ، ولكنها رفضت رجائى وفضلت الاستجداء فى الطرق وإغراقى فى العار ! وأقسم لك أنى إذا رأيت أحد ولديها قد عاد الى فارنيا فانى سأقتله انتقاماً لنفسى من هذا العار ومن الآلام التى تحملتها طيلة أربعة عشر عاما ! سأقتله

ياسيدى ، وإنى أجهر لك بذلك أمام زوجى وأولادى .

وهنا مسح روكو شفته بذراعه وهو يرتعد وقد صعد الدم الى عينيه الغائرتين ، وكان الطبيب يصغى إليه ويحدق ببصره فيه ، ثم قال له :

— ولكن لماذا ترفض أمك الاقامة معك ! لأنك تكره أخويك من غير شك

— أكرههما ؟ نعم أكرههما الآن فقط من أجل الآلام التى نسجا برودها لأمهما ولى أنا أيضاً ، ولكن لما كانا فى القرية ، كنت أحبهما وأحترمهما كشقيقين أكبر منى سناً . أما هما فعلى العكس من ذلك كان يجرى فى عروقهما دم قابيل ! إسمع ياسيدى . كانا لا يملان شيئاً ، وكنت أنا أعمل للجميع ؛ وكانا يترددان على بيتى ويقولان إن الخير يموزها وأن أمهما نامت طاوية ، فأعطيهما ما عندى من الطعام ، وقد ارتطما فى حمأة الدعارة فتزوجا من امرأتين لهما سيرة قذرة ، ولكنى مع ذلك كنت أعطيهما ما يريدان . ولما سافرا إلى أمريكا ودعتهما وتمنيت لهما الخير كله . سل امرأتى تنبئك يا سيدى

فقال الطبيب بصوت خافت حتى لكأنه يخاطب نفسه :

— ولكن لماذا إذن ... ؟

— لماذا ؟ لأن أمى تقول إنى لست ولدها

— كيف هذا ؟

سيدى الطبيب ، سلها تشرح لك ، أما أنا فليس عندى من الوقت ما يكفى ، والرجل فى انتظارى للعمل

قال هذا وابتعد مقوس الظهر والساقين ويده فى وسطه كما جاء ؛ وشيعه الطبيب بنظره لحظة ، ثم التفت إلى المرأة وأولادها وقال : « فلتكن مشيئة الله ! »

* * *

عاد الطبيب إلى بيته وهو يفكر فى تفسير هذه الحال الغريبة التى آلمت قلبه ؛ وكانت مارا جرازيا جالسة على عتبة الباب ، فدعاها إلى الدخول وقال لها بصوت فيه رنة الخشونة : « لقد تحدثت إلى ابنك فى بيت العمود . لماذا أخفيت عنى أن لك ولداً آخر ؟ »

فنظرت اليه المرأة دهشة ، وعبثت يدها المرتعشة بشعرها قليلاً ، ثم قالت :

— آه ! ياسيدى الطبيب ! العرق البارد ينصبب من جبينى كلما خاطبنى أحد فى شأن هذا الابن . أشفق على ، ولا تذكره أمامى بعد ذلك !

لماذا ؟ ما الذى تأخذينه عليه ؟ تكلمى

فى الحق ياسيدى أنه لم يسىء إلى ... كان يجرى خلقى فى احترام ... ولكن ... انظر كيف أرتعد حين أتكلم عنه ؟ آه ! استمع ، ياسيدى الطبيب ، إنه ليس ابنى

فلما سمع ذلك فقد كل صبر وصاح قائلا : « كيف ؟ ماذا تقولين ؟ أنت بلهاء أو مجنونة ! ألست أنت التى حملته وولدته ؟ »

لكمت العجوز رأسها وقالت :

نعم ياسيدى ، ولكنى بريئة من البله والجنون ... لن أتألم من بعد ذلك إن شاء الله ... وقعت أشياء ياسيدى لا تعرفها لأنك صغير السن ، ولكن أنا غارقة فى الألم من عهد بعيد إلى اليوم ... وقد رأيت فى ذلك العهد أشياء لا تستطيع أن تتصورها

— تكلمى ، ماذا رأيت ؟

— أشياء هائلة مخيفة ، لم تكن أنت فى ذلك العهد قد ولدت ... رأيت هذه الأشياء بهاتين العينين اللتين لم تنيا عن البكاء طوال أعوام كثيرة . هل سمعت إلى أحد يتكلم عن رجل يدعى كانا باردو ؟

— غاريبالدى ؟

— نعم ، هـذا هو الاسم الصحيح . وهو الرجل الذى قدم هـذه البلاد وأنار المدن والريف على قوانين الانسان وقوانين الله ! أسمعت إلى أحد يتكلم عنه !

— نعم . نعم تكلمى . ما شأن غاريبالدى فى هذا الموضوع ؟

— أعلم أن هذا الرجل أصدر أوامره عنـد قدومه بفتح أبواب السجون جميعاً ، فخرج منها أسوأ اللصوص وأفظع القتلة وأخطر المجرمين ، وكان من بينهم رجل ، هو أكترهم فظـاعة ، يدعى (كولا كاميزى) كان رئيس عصبة تقتل الناس كأنهم ذباب . وتجد فى سفك الدماء أكبر لذة . وكان هذا الرئيس يقتل ويقول : إنى أجرب الذخيرة أو أجرب مرمى البندقية . أقام فى الريف على مقربة منا وكان يقتـل الرجال الذين يرفضون الانضمام الى عصبته أو يأبون الخضوع لأمره ... كنت متزوجة فى ذلك الوقت ، وقد مضى على زواجى بضعة أعوام وكان عندى ولدان اللذان يقيمان الآن فى أمريكا . وكان زوجى المسكين يعمل فى أرض (بوزيتو) فمر به كولا كاميزى وأخذه قسراً ؛ وبعد يومين عاد الى زوجى شاحب الوجه كالموتى حتى كدت أنكره ... لم يستطع الكلام وكانت عيناه ممتلئتين بكل ماشاهد ، وكان المسكين يخفى يديه اشمئزازاً من كل ما أرغم على فعله ... آه ! يا سيدى الطبيب ، لقد جمد دمى فى عروقى حين رأيته على هذه الصورة . صرخت قائلة عند رؤيته رحمه الله « نينو ، ما ذا فعلت ؟ » ولـكنه عجز عن الـكلام وجلس أمام الموقد صامتا وهو يخفى يديه تحت ثيابه وينظر إلى الأرض بعينى أبله أو مجنون . وبعد وقت طويل قال : « الموت أفضل ! » : ظل مختبئاً ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع . كنا فقراء يا سيدى ولا بد من العمل ... خرج ليعمل ، ولم يعد فى المساء . انتظرت طويلاً ثم أدركت كل شىء ، وقلت لنفسى مع ذلك لأدفع عنى الخوف « من يدرى ؟ لعلهم لم يقتلوه . ربمـا أخذوه فقط كأول مرة ! » علمت بعد مضى ستة أيام أن كولا كاميزى يقيم مع عصبته فى (مونتلوزا). ذهبت إلى تلك الناحية كالمجنونة فى يوم شديد الرياح إلى درجة عجيبة . هل رأيت الهواء يا سيدى ؟ فى ذلك اليوم كان الانسان يستطيع أن يراه ، فيجعله يعتقد أن أرواح الذين قتلوا تصرخ طالبـة من الله والناس الانتقام ! أسلمت نفسى الى هذه الرياح ، وكبـدى قريحة وقلبى ممزق معذب ، فحملتنى . استغرقت على الأكثر ساعة فى الوصول الى الـكهف . كان به فناء كبير محاط بالأسوار ينفذ اليه الانسان من باب صغير يصعب العثور عليه . تناولت حجراً لأطرق به الباب ... لم يفتح أحد فعاودت الـكرة بشدة ، ففتح الباب ورأيت ... آه يالهول مارأيت !

توقفت ماراجرازيا عن الـكلام وقد استولى عليها الرعب الشديد ، وتقلصت أصابعها وخذلها الصوت فعجزت عن متابعة الـكلام . وبعد لحظات قالت :

— فى اليد ... فى اليد ... هؤلاء القتلة ...

توقفت ثانية وحركت يديها كمن يدفع عن نفسه شيئا . فقال الطبيب :

— حسن . وبعد ؟

— كانوا يلعبون فى الفناء بكرات ... هى رؤوس رجال ... ملوثة بالطين ... كانوا يمسكونها من الشعر ... وكان رأس زوجى فى يد كولا كميزى نفسه ... عرضها السفاح لنظرى فصرخت صرخة حسبتها مزقت صدرى . صرخة جعلت السفاكين يضطربون ويرتعدون ... ضغط كولاميزى على عنق ليرغمنى على الصمت ، ولكن أحد رجاله انقض عليه فجأة ، ثم تشجع أربعة أو خمسة من زملائه وألقوا بأنفسهم على رئيسهم ... لقد تنبهوا من غفلتهم ووضعوا حدا لطغيان هذا الشيطان . وكم كان فرحى عظيما حين كنت أرى هذا الكلب يختنق أمام عينى بأيدى رجاله

سكتت العجوز وهى تلهث من شدة الهياج ، وحدق فيها الطبيب وبدت على وجهه أمارات الشفقة والرعب والسخط ، ثم تغلب على ما فى نفسه وفكر طويلاً فلم يستطع أن يستخلص مما سمع أية صلة بين قصة المرأة وابنها روكو ، فسألها الوضوح فقالت :

— انتظر حتى أستريح قليلاً ... الرجل الأول الذى انقض على رئيس العصبة ودافع عنى كان يدعى ماركو

فصاح الطبيب قائلاً : « آه ! أذن روكو ... »

— ولده ... فكر قليلاً يا سيدى الطبيب . هل كنت أستطيع أن أكون امرأة هذا الرجل بعد الذى رأيت ؟ ! راودنى عن نفسى وأراد اغتصابى ... احتجزنى عنده ثلاثة أشهر مقيدة مكممة الفم لأنى كنت أصرخ وأعضه . وفى نهاية الأشهر الثلاثة ، استطاعت العدالة أن تقبض عليه وترسله إلى السجن ، فمات فيه ... ولكنى كنت حاملاً ... آه ! يا سيدى ، أقسم لك أنى كنت أشعر بأحشائى تتمزق ، وبأنى أحمل فى بطنى غولاً ... واعتقدت أنى لن أستطيع رؤيته أو حمله بين ذراعى . وكلما كنت أفكر فى أنى سأرضعه ، كنت أصرخ كامرأة أصابها الجنون . كان أحب إلى أن أموت أثناء الوضع ، أى رحم الله روحها ، ساعدتنى وجنبتنى رؤيته ، واستودعته عقب وضعه مباشرة ، أقرباء أبيه ، فقاموا بتربيته . والآن ، أعرفت يا سيدى لماذا أقول إنه ليس ابنى ؟ آه ! ليتنى ما ولدته : ليتنى مت قبل أن أحمله !

ظل الطبيب لحظات غارقا فى خواطره ثم قال :

— ولكن ولدك نفسه لم يسىء إليك

— هذا حق يا سيدى ، وإنى لم أنطق بكلمة واحدة تسىء اليه ، ولكن ماذا أصنع ؟ لا أستطيع رؤيته ، حتى من بعيد ! إنه صورة أبيه تماما ؛ وجهه وهيئته وصوته . إنى حين ألمحه أرتعد ويغمر العرق البارد جبينى ! انه ليس منى ... كيف أصنع !

سكتت ومسحت عينيها بظهر يدها اليمنى ، ثم خشيت أن يغادر المهاجرون القرية دون أن يتسلموا منها خطابا لولديها . فاستجمعت شجاعتها وقالت للطبيب السابح فى أفكاره :

— أحسن الى يا سيدى كما وعدتنى

فتنبه الطبيب وقال : « انى على أتم استعداد »

فدنت العجوز من المنضدة وشرعت تملى على الطبيب بصوت تخنقه العبرات :

— ولدى العزيزين . . .

ترجمة حسن صادق

لو تكاشف الناس

TROP SAVOIR

لفرنسيس دوبر

بقلم الدكتور محمد الرافعي

كان جان كرمهوت الهولندى مولعاً بجمع الأنواع النادرة من «سام أبرص[1]» وكثيراً ما كان يتحدث عن طباع هذه الحشرات وعاداتها حديث العالم المحيط غير جاهل شيئاً عن الألف والسبعمائة نوع المعروفة منها

وكنت لا أعرف عن سام أبرص غير أنه دُوَيبة يتقصَّف ذنبها إذا أخذها الانسان منه ؛ بَيْد أن كرمهوت قرر لى أن هذا الذنب إن هو إلا وسيلة من وسائل الدفاع عن الحشرة ؛ فاذا ما طارد الأبرص ثعبان أو عدو آخر يريد التهامه أمكنه من ذنبه ثم تركه يتلهى به وانخلع منه وأسرع فاختجر بين الشقوق لا يغادرها حتى ينشأ له ذيل آخر يحمل منه سلاحه الطبيعى

* * *

نزلت ضيفاً على جان كرمهوت فى مثواه بمدينة باسوروين على ستين ميلاً من (سويسرا باجا) بجزيرة جاوة . وكان المكان هادئاً جميلاً يبتعث الخيال الشاعر ويطل منه الناظر على القردة فى أشجارها تتقاذف وتتواثب ، وعلى غمام طائر من أسراب الفراش كأنه سحابة ذهبية تحجب الشمس مرة وتنفرج لها مرة

وكنت أكثر الوقت فى شرفة المنزل لا أتحول عنها إلا لضرورة ، إذ كان كرمهوت قد جمع فى داره قرابة خمسمائة حشرة مكفوفة فى أوعيتها ، فكان لخفيف أجسامها الصدفية على الرمال فى هذه الأوعية كالضرب على أعصابى دَرَاكاً لا ينقطع

وفى هذه الشرفة قص على كرمهوت قصة سام أبرص نادر عثر عليه هو وصديقه ريشارد مرل وسماه باسمه

* * *

كان ريشارد هذا انجليزياً فارع القامة وثيق التركيب أحمر الوجه عريض الجبهة بارد الطبع . تزوج وهو فى السادسة والأربعين امرأة تصغره باثنتين وعشرين سنة ؛ ناضرةً بضة كالزهرة ، لها عينان زرقاوان تدلان على دلالة . . . وتنبعث منهما جاذبية قوية لا تدفع ، وكأنما تقول لمن ينظر إليها من الرجال : « إن زوجى غائب غيبة طويلة للصيد وقد تركنى وحدى فى هذا الشباب وهذا الجمال ؛ أفيرضيك أن أكون وحدى . . . ؟ »

ولنعد إلى قصة الأبرص . قال محدثى : إن مرل رآه فأهوى إليه وانتزعه من بين الحشائش ، وما كاد يجمع يده عليه حتى صرخ : لقد لدغنى فى أصبعى

قال فنظرت فاذا إصبعه دامية يغور فيها الجرح ، غير أنه لم يكن خطراً لأن سم هذه الدُّوبية لا يقتل الانسان . فضمدت له جرحه ثم جلسنا نتأمل صيدنا . ولأول نظرة تبين لنا أن هذا الأبرص مما لا يعثر عليه إلا فى الندرة

* * *

كان ذلك فى الساعة الثانية بعد الظهر فلم تنقض ساعة بعدها حتى أنكرت وجه مرل ، فقد

(١) هو الذى يسميه العامة (البرص) وسام أبرص كلمة واحدة مبنيه على فتح الجزأين كخمسة عشر ولكننا اقتصرنا على أحد جزأيها للتخفيف

انكفأ لونه وتغير وأصبح كالشمع ، فأسرعت أجس نبضه فاذا هو يضرب ثلاثين ومائة كالذى أوهنه المرض ؛ بيد أن الذى أدهشنى أنه لم يهن ولم يضعف ولم يتغير بل زاد قوة ونشاطاً ، وأحس نشوة كأنه شارب ثمل . ثم رأيته وقد انطلق لسانه كالذى أخذت فيه الخمر مأخذها فحسبته يهذى . وقال فيما قال :

أتعرف يا كرمهوت أنه قد كُشف عن بصرى الآن ، فأنا أطالع أفكارك وأفكار هؤلاء الحالين الثلاثة الذين معنا ؟

فقلت وقد أيقنت أن به مسَّ الحمَّى :

لا ريب فى ذلك إن كان مكراً مما تمكر ، أو مزحاً مما تمزح

قال : ليس بى مكر ولا دُعابة ، ولكنه ما أقول لك ؛ أوأخبرك عما فى نفسك الآن ؟

فابتسمت سخرية به ، وقلت له : إن كان هذا من لدغة الأبرص ؛ فقد وقعت لنا عجيبة العجائب ، ولكن ما الذى يكشف لك منى ؟

فأغمض عينيه كالذى يجمع فكره ثم قال :

إنك تفكر الساعة يا كرمهوت فى تلك الخادم التى رأيناها بالحانة فى سنغافورة

فذهلت مما أسمع إذ لم يعْدُ ما فى نفسى ، وخجلت مما اطَّلع عليه من شأنى . وكانت أشعة الشمس الفضية وهى تتناثر من غصون الشجر قد نبهت فى مخيلتى أشعة مثلها من حسن تلك الحسناء . ولكنى على ذلك رأيت أن أتثبت فقلت لمرل : أحسبك مجنوناً فما فكرت فيها قط

ولكنه نظر إلى خجلى نظرة كانت رداً . فسألته بعد هنيهة وقد أغفى قليلاً : كيف أنت الآن وتلك الحالة ؟ قال : كما هى

قلت : فيحسن بك أن تطالع أفكار هؤلاء الحالين فقد رأيتهم يتناجَون فيما بينهم وأحسب لهم شأناً . فحدق النظر فى الحالين ثم شخَص بصرُه لا يَطْرف ، وقال بصوت بَرَد له الدم فى عروق : إنهم يأتمرون بنا ليقتلونا

فتناهضت فزعاً فأمسك بى وقال : لا ينبغى أن يعرفوا أننا اطلعنا على سرهم . قلت أواثق أنت مما تقول ؟

قال : كوثوق من تفكيرك فى تلك الحسناء

* * *

ثم استفاق مرل من تلك الغشية فتلون وجهه ورجع النبض إلى حالته الطبيعية وزال ما اعتراه من لدغة الأبرص فتنهد تنهداً طويلاً ثم قال : عجيب أن يفكر هؤلاء الشياطين فى قتلنا . فأجبته وأنا أتكلف الضحك : عجيب حقاً ولكن ترى كيف يقتالوننا ؟

قال : لا أدرى فقد انجابت عنى تلك الغشية ؛ ولقد كنت أرى كل شىء واضحاً بيناً ؛ وكانت عينى فى طويتك فعلمت علمك حتى ما وسوست به من أنك عند رجوعك الى سنغافورة ....

قلت : حسبك فلقد كان ذلك ولكن الذى بنا الآن هو أن نعرف ما ذا يريد بنا الحالون ؟

* * *

جلسنا أمام الأبرص وهو يرمقنا بعينيه وأفضنا فى أمر تلك الخارقة العجيبة وتعليلها فانتهينا الى أنها كغيرها من ممكنات العلم ، وهى ليست أعجب من تلك المادة التى جربها علماء أمريكا فى المجرمين فأخذتهم عن وعيهم حتى أقروا وهم لا يشعرون ،

وسكت ظاهر الرجل منهم وتكلم باطنه . إن هذه المادة تبطل عمل الكتمان كالخمر ....

ولما كانت حواس الانسان تسجل الأشياء عادة من تلقاء نفسها بارادته وبغير ارادته ، فى وعى وبغير وعى ، فان سم هذا الأبرص يهيج ولا شك قوة التسجيل هذه الى وقت محدود ، وينشط العقل الباطن فيصفو المخ وينكشف له كل ما سجلته الحواس . فلا جرم كانت حواس مرل قد سجلت أشياء كثيرة فيما يختص بهؤلاء الحمالين ، ولكن طمس عليها انشغال مخه بأشياء أخرى

ثم قلت : أما أنا فأعتقد أن هذا السم يهيج القوى الباطنة فيكشف للانسان ما تسجله طبيعته الحيوانية ، فهو يجعل الروح الغريزية فوق العقل . وعلى كل حال فلسنا الآن فى السم والسام ولكن فى التنبه للحمالين هذه الليلة

* * *

كانت الليلة مُلتَجَّةً بظلامها سواد على سواد ؛ وكانت السماء ضريرة النجم ، والغابة ساكنة كأنها تتوقع أمراً فهى تحبس أنفاسها ، والحيوان كله صامت كأنما يتربص كلٌّ لكلّ . فجعلنا نتناوب الليل ، أحرس وقتاً ويحرس مرل وقتاً فلما كنت فى نوبتى شعرت بدخول الحمالين .. لم أسمع لهم حساً فان جريان الدم فى أذنى ربما عاقهما عن ارهاف السمع . ولكن دلنى عليهم اقشعرار بدنى ونفور الشعيرات الدقيقة الحس ؛ فمددت يدى وأيقظت مرل

وكان أحد الحمالين فى زحفه على الأرض قد مسَّ رماد النار وهى كابية تحته ، فانبعثت منه آهة لم يتمكن من ردها . وفى هذه اللحظة هجم علينا ثلاثة الحمالين هجوم رجل واحد ، فتلقيناهم بالرصاص فقتلنا منهم اثنين وفر الثالث

وفى صبيحة تلك الليلة حملنا القليل من حشراتنا والضرورى من المتاع والزاد وعمنا شطر النهر . وقال مرل وهو يحمل ذلك الأبرص العجيب : هل تعتقد يا كرهوت أن فى الامكان قراءة أفكار أى الناس ممن نعرف ومن لا نعرف ؟

قلت : كلا بل الذين نعرفهم دون غيرهم فسكت ونكس بصره كالمفكر ومشينا حتى إذا توقدت الشمس فى الظهيرة ولفح الهواء جلسنا لطعامنا وتروحنا ساعة ، ثم حزمنا أمتعتنا ، وبينما كنت أتفقدها سمعت مرل يصرخ وهو قابض على الأبرص بيديه ؛ فقلت ويحك ماذا تصنع ! قال : ليست هذه غلطتى ولكن الحيوان قد ندَّ فأمسكته

ونظرت فرأيته قد انكفأ لونه ثم اعتراه ما اعتراه من قبل ثم شع فى عينيه ذلك البريق الغريب ، قلت : هل لدغك مرة أخرى ؟ فأومأ أن نعم ؛ فانتزعت الأبرص وألقيته فى صندوقه

ولم أكن فطنت لما أراد مرل من سؤاله فارتعدت من هول الحقيقة التى ظهرت لى ؛ فهو قد استلذع الأبرص هذه المرة ليطلع من بعيد على أفكار شخص يعرفه حق المعرفة ، ولكنه لم يفكر فيه بالأمس ... وكنا على عشرين ميلاً من النهر ولم نجد ظهراً ولا إنساناً يحمل عنا فماذا هو صانع إذا اطلع على ريبة .. فى تلك الأفكار المخبوءة وراء العينين الجميلتين ... عيني زوجته التى تركها مبذولة الخدر فى سنغافوره ... ؟

ولم ألبث إلا يسيراً حتى رأيته قد وثب قائماً وهو يرجف ويضطرب ، ومر يعدو نحو النهر

فناديته : أمتعتك يا مرل ؟ فاستدار ينظر إلىّ بعيني مجنون في وجه قاتل ، وصاح بي : ماذا تريد ؟

قلت : خذ عني أمتعتك أو احمل على الأقل هذه الحشرات

قال : ليأخذك الشيطان أنت وحشراتك . ثم طار على وجهه في الغابة ، فأسرعت أحمل ما خفّ ومعي الأرض ، وجعلت أعدو خلفه وهو منطلق يصيح ويلعن جميع النساء من ذوات العيون الزرق ...

* * *

الحرّ شديد كاللظى ، والأبخرة الخانقة تتنفس من جوف الغابة ، والنبات المتعلق يلتف بساقّ ، فيجاذبني وأجاذبه ، ودود العلق يتزاحف على جسمي ويندس بين ثيابي ، والذباب يتناولني بلسعه ، والعرق يتحدّر من جبيني فيكاد يُغشي على بصري وأنا في ذلك أعدو أشدّ العدو لألحق بالرجل . فبعد لأْيٍ أدركت أثره وسمعت حسيسه فجعلت أصيح به أن يقف أو يتمهل وهو لا يلتفت إلىّ ولا يسمع إلا صوت دمه يريد أن يغسل شرفه بالدم ، فقد اطلع على أفكار زوجته التي تركها وحدها ! واستمر هذا مني ومنه إلى الليل فكدت أجن مثله ...

* * *

أقبلتْ عليّ الأماني والأحلام ، فتوهمتُني أصبحت من أهل الثراء ، ثم من ذوي الملايين إذ أبيع « لدغات الكشف » بالثمن الغالي لكل زوج غيور ... ورأيتني في قصري الجميل أملك ما أملك وأنفق ما أنفق وأنال ما أنال وسوف وسوف ... حقاً لقد كنت مجنوناً مثل صاحبي فان الحرارة والأبخرة ودود العلق والذباب قد ملأت رأسي ضباباً ...

وأظلم الليل وبلغنا النهر ، وكنت أخشى أن يقذف مرل نفسه فيه ليعبره سباحة إلى بنجارون وفي النهر التماسيح ... غير أنه ثبت على الشاطىء فأدركته فاذا هو ممزق الثياب أشعث أغبر منتفخ الوجه مخدّش الأديم كأنه وحش في إنسان .

فأعطيته ما يتبلّغ به وسقيته جرعة من الكحول ، وسألته أن ينام ، ولكن أنى له النوم وقد رأى ما رأى من أمر زوجته ... وخشيت إن أنا نمت أو غفلت أن يسلبني الأرض وفيه ثروتي وأحلامي وشهرتي التي تملأ الدنيا . فحطمتُ أعصابي في مدافعة النوم وبت هالكا تعباً وسهراً وخشية ، وعلينا الظلام بهمومه ، وحولنا الأفاعي بسمومها .

وأطرق مرل لا يتكلم إذ كان في نفسه كلام آخر

ووردت عليّ الأحلام بعد الأحلام ، فاذا أنا قد نمت آخر الليل وصرعتني الحمى

ولما سطع الفجر أبصرنا زورقا فلوّح لهم مرل ، فلما دنا منا صرخ في النوتية أن يحملوه ، فراعهم منظره المخيف وحسبوه قاتلا قد جنى الجناية ويريد الفرار فترددوا هنيهة ، ثم قبلوا بعد أن شرط لهم حكمهم في الأجر

ومسح الصبح على وجهي بنسيمه البارد فرد إلىّ عقلي فتناسيت أحلامي وجعلت أتلطف بمرل وأديره عن خواطره ؛ وأوهمته أن سم الأرض قد هاج فيه مثل الحمّى بهذيانها وليس له أن يقطع باليقين في مثل هذه الحالة . ولكنه كان في أشد اليقين كأنما رأى رأي العين

ولما بلغنا فُرضة النهر كانت الباخرة الهولندية المسافرة إلى سنغافوره قد تحركت ، فصرخ مرل بصوت كالرعد يأمر ربانها أن يقف كأن له عليه حق الأمر ، فأدار الربان ظهره ولم يعبأ به ، فلم تكن إلا طرفة العين حتى نضا ما بقي عليه من الثياب ثم

رمى بنفسه فى الماء وجعل يسبح إلى الباخرة والتماسيح تتجه إليه وتدنو منه ، وقد ضجّ الناس وصاحوا وأجلبوا ، وكنت أتوقع بين الثانية والثانية أن يكون قد غاص به تمساح ، ولكن يظهر أن وجهه الوحشىّ وجسمه الضخم المخدش قد جعلا منه حيواناً يخيف التماسيح ... فكانت تحوم حوله ولا تناله . ورقّ له الربان ، فأمر بالقاء الحبال فاجتذبه البحارة ، فلما صار على الباخرة هتف بى أن ادفع ما شرطنا لأصحاب الزورق ولك وحدك هذه الحشرة الملعونة ...

* * *

وسكت محدثى ، فقد رأينا على بعض الأشجار القريبة من المنزل قرداً أذقن يضرب أنثاه ومن حولها اصطفت جماعة القردة كالنظارة وقد خلّوا بين الزوجين ، وكان القرد الهرم يضربها ضرباً مبرحا على رأسها وهى تصرخ وتتلوى من الألم ؛ فلما طال ذلك وثب قرد فتى فدخل بينهما يريد حماية الأنثى فانقض عليه الآخر وأقبل يطارده من شجرة الى شجرة حتى غابا جميعاً عن الأبصار

ثم تابع كرمهوت حديثه فقال : لم أر مرل بعد ذلك اليوم غير أنى لقيت ربان الباخرة الهولندية بعد أوبته فسألته عن خبره فقال :

أنبك لأنت الذى بعث إلى بهذا المجنون القاتل ؟ فقلت : المجنون القاتل . . . ! قال : نعم لقد كان مجنوناً وأوشك أن يصير قاتلاً ، فانه ما وطئت قدماه الأرض حتى هرول فى لباسه البحرى القديم الذى أعرناه إياه فاستقلّ عربة الى داره فلم يجد بها زوجته ، فاستدلّ الجيران فانبأه أحدهم أنه واجدها إذا شاء فى منزل عيّنه ، وهو من تلك المنازل التى تتخذ للفجور . فجن جنونه وطار الى ذلك المأوى ، وتعلق بفروع النبات المتسلقة على جدرانه حتى بلغ الى النافذة ، فأطل منها ، وكان قد استعار مسدساً من أحد أصدقائه فى الطريق فصوّبه وأطلقه ثلاثا ثم هبط الى الأرض واختفى

وجاء الشرطة فاقتحموا المكان ، فاذا بزوجة مرل مضرجة بدمائها وفى كتفها رصاصتان ، وقد اختبأ تحت السرير شاب أسمر اللون مرت الرصاصة الثالثة على صدره فخدشته ولم تؤذه . فنقلوا المرأة الجريح الى المستشفى وأطلقوا صاحبها

* * *

وسكت محدثى مرة أخرى لينظر الى القرد الأذقن ، وكان قد رجع من مطاردة غريمه وأخذ يهمهم لأنثاه بصوت يأمر وينهى ، وهى فى ذلك تطأطىء رأسها مذعنة . . فقطعت عليه وقلت له :

وماذا فعلت بالأرص بعد ذلك ؟

فطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقال :

مكثت فى بنجرمازان ثلاثة أشهر جمعت فيها أنواعا أخرى من الحشرات ، ثم أخذنى الحنين الى وطنى استردام والى أطعمتها الشهية والجمة اللذيذة التى عُرفت بها . فجمعت أمتعتى ووضعت الأرص فى صندوق اتخذته له وكنت قد كتبت عنه وعن خواصه فى المجلات العلمية الأوربية ، ونشرت له صورا عدة ، فاشتغل العلماء بالحديث عنه فى برلين ولندن وڤينا وغيرها وباتوا يرتقبون أوبتى

وَرَسَت الباخرة الى مرسيليا ، فتحاشيت طوال الرحلة الاختلاط بالمسافرين ، إذ سئمت معاشرة الناس ؛ بيد أن رجلاً من الظرفاء كان قد عاش طويلا فى أنقرة مع امرأته الفرنسية جعل يتسبب لمعرفتى حتى اتصلت الأسباب بينى وبينه ،

فتجاذبنا الحديث وكان رجلاً واسع العلم فذاكرني وذاكرته ، وقد أولع بأبحاثي وقرأ مقالاتي الأخيرة وكان يعرف شيئا كثيرا عن الثعابين ، ودرس العنكبوت دراسة خاصة

وأفضى بنا الحديث يوما الى ذلك الأبرص وخواصه العجيبة ، فقصصت عليه قصة مرل فقال لولا أنك ممن يُعتقد قوله لعددتها من الأكاذيب . ثم جعل يعنى به أكثر مني ، فكان يمضي الساعات الطوال في الاشراف عليه وتأمله ومراقبة حركاته

* * *

وصرنا على مسافة يوم من مدينة عدن ، فاشتدت في الليل وطأة الحر ، فتركت حجرتي وصعدت الى ظهر الباخرة واستلقيت تحت النجوم ونمت ملء عيني ، فأني لأغط في نوم إذ نبهني طلق ناري أعقبه صياح ، وصرخ أحد البحارة : أن قد وقع رجل في الماء . فاتأدت الباخرة وأنزلوا قاربا من قوارب النجاة الى البحر ، ولكنهم لم يعثروا على جثة صديقي . . . نعم صديقي فقد انتحر غرقا بعد أن قتل أحد المسافرين الذين ركبوا من سنغافورة ، إذ رآه خارجا من مقصورة زوجته فرماه بالرصاص

لم يطب لي البقاء على ظهر الباخرة فانحدرت الى مقصورتي وما كدت أفتح بابها حتى رأيت منظراً جمدتُ له في موضعي ، فقد كان صندوق الأبرص مفتوحا ملقى على السرير ، ورأيته وهو يدب على اللحاف . . . فأدركت حينئذ من الذي أخرجه من صندوقه . . . وأغلقت الباب وخففتُ لمقابلة الربان فأصبته في حجرة القتيل ومعه الطبيب يفحصان أوراقه . وما كدت أنظر حتى شُدهت ، إذ لمحت بين الأوراق صورة جميلة لزوجة مرل ! فالتفت نحوي الربان وقال : هل تعرف هذا الرجل ؟

قلت : كلا . بل أعرف هذه السيدة

ثم قصصت عليه كل ما وقع . وكان الرجل الذي قتل في الباخرة هو ذاته ذلك الذي أفسد زوجة مرل . وقد عثرنا بين أوراقه على رسائل منها تدعوه فيها أن يلحق بها في انجلترا . فمثّل الدور نفسه في الباخرة مع زوجة صديقي الآخر . . . وكان الأبرص هو الذي كشفه أيضا هذه المرة

ولما علموا علم هذا الحيوان العجيب نزلوا معي الى مقصورتي . وحرك الطبيب شفتيه بكلمات لم أفهمها ، وفجأة انتزع مروحة من سعف النخل كانت على الحائط ومدها نحو السرير فاقتنص الحيوان فيها وقذف به من الكوة الى البحر

وجرى كل ذلك في مثل طرفة العين ، فلم أملك غير الصيحة وانتفضتُ من الغضب ورميت بنفسي على الطبيب أريد خنقه ، فحال بيني وبينه الربان ، وجعلت أرعد من الغيظ ، والربان يتلطف بي ويهدّىء مني ، ويزعم أن الطبيب ما أهلك الأبرص ولكن أهلك الشر

وانقطعت في مقصورتي ، وقد خابت جميع آمالي ، فلا مال ولا شهرة ولا علم ولا كرامة ، ولن أجد بعد اليوم حيوانا من هذا النوع النادر كلا ، لن أجد . . .

* * *

اتكأ كرمهوت برأسه على كرسيه ثم أغمض عينيه بعد أن انتهى من القصة واسترسل في خياله

أما أنا فجعلت أفكر فيما صنع الطبيب . . . لقد حرم العلماءَ شيئا من الزيادة في العلم ، ولكنها بعينها زيادة في الشر . . . !

أما والله لو تكاشفَ الناس بالحقائق لقتلتهم الحقائق .

محمد الرافعي

الهارب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

— ١ —

دخل «سعيد الميداني» على مدير دار الكتب — حين أذن له — وهو يحيي وينشر الجريدة التي كانت مطوية تحت إبطه وقال وهو يقدمها له :

« هل قرأت هذا يا بك ؟ . . إن الحملة واضحة التلفيق ، ولهذا جئت وفي مرجوى أن أظفر منك ببيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير وألقاها على طرف المكتب ولم يكتم ضجره وهو يقول : « تفضل . تفضل . إن كل ما يعني رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون — كل ما يطلبون — فيها وأن يهتدوا اليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت ؛ ومتى كان هذا حاصلاً فلست أبالي ما تكتب الصحف أو يقول غيرها ؛ وهذا حسبي وحسبك بيانا . فاذا قنعت به فذاك ، وإلا فأمرى إلى الله فما أستطيع أن أضيع وقتي في الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هذا كتاب ضخم وضع بين صفحتين فيه قلماً أحمر غليظاً ، وكان ينظر إلى إحدى الصفحتين ويشير بأصبعه إلى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به ؛ بل لقد خيل إلى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز رأسه كأنما يريد أن يطرد هذا الخاطر ، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من أحدث خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية ومن أنشطهم وأشدهم إقبالاً على التحصيل والاطلاع ونزوعا إلى الاستقلال والعمل الحر ، وخال فيه صاحب جريدة «الأحوال» الخير من لحاته ، وآنس الرشد من أعماله ، فألحقه بمساعديه الكثيرين ، وما لبث أن صار يعتمد عليه في تعقب الأخبار وتقصي الحقائق

ورأى المدير أن سعيداً ينظر إلى الكتاب الذي بين يديه فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال : « على فكرة ... هل عندكم في « الأحوال » ملفات خاصة بتراجم المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمراً فقال : « متى أسست جريدة الأحوال ؟ »

فقال سعيد « بعد الحرب العظمى ... سنة ١٩١٩ — أو ١٩٢٠ »

فقال المدير : « إذن لا فائدة ... »

فقال سعيد « هل تسمح لي أن أسأل ما هي الحكاية لعلي أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة أنها مسألة غريبة ... كنت أمس أقرأ كتابا لعبد القادر التميمي وهو كاتب مصري وشاعر أيضاً وإن كان شعره قد ضاع باهماله أو على الأصح لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأي الناس فيه ، وقد كان مشهوراً منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ، ولا يدري أحد أهو حي فيرجى أم ميت فيبكى ... وقد رجعت اليوم إلى المستدرك (وأشار بيده إلى الكتاب الذي بين يديه) وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الأعلام للزركلي ، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه إلى آخر ذلك وليس فيها تاريخ لوفاته ؛ والمفهوم من هذا بداهة أنه كان حياً حينما صدر الجزء الرابع من

أعلامه — أعنى المستدرك — ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته إذا كان قد مات ولكنه كان حينئذ خليقاً أن يذكر تاريخاً تقريبياً لوفاته على عادته . لهذا أرجح أن الرجل كان حياً وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل ... فهل هو لا يزال حياً ؟. أم تراه مات ؟ وأين ؟ هذه هى المسألة ... ولست أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى ولكن أدر المسألة فى خاطرك عسى أن تهتدى إلى شىء فتخبرنى ... إذا سمحت ولك الشكر »

ونهض واقفاً إيذاناً بانتهاء المقابلة . ولكن سعيداً كان مطرقاً وكان يفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير بقف فعاد ذلك إلى مقعده على مهل ، وقد جال بذهنه أن لعل هذا الشاب يعرف شيئاً يستحق أن يصغى اليه . وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف :

« عبد القادر التميمى ؟ أى نعم ! أذكر هذا الاسم ... وإن كنت لم أقرأ له شيئاً ... قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ... وسمعت من أستاذنا فى الجامعة أن الناس فى عصره كانوا فى حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لا يعرف له جداً من هزل ... وكان يتهكم بكل شىء ... كل شىء حتى نفسه ... وكان أسلوبه جديداً فى بابه فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه ولكنهم أخفقوا فأقصروا ... »

وهنا تململ المدير فما كانت به حاجة إلى من يصف له الرجل وإنما كانت حاجته إلى من يدله عليه وعلى مكان قبره

ومضى سعيد فى كلامه غير عابىء بضجر المدير فقال : « نعم ... وأذكر أن أستاذنا قال : إنه رحل عن مصر وخلف أسرته بها وترك لها كل ما جمع من مال ، وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك ولكن من المحقق أنه لم يمت وإن كانت أخباره قد انقطعت ... نعم أذكر هذا ... »

فقال المدير : « أواثق أنت من ذلك ؟ »

قال سعيد : « كل الثقة ... ولكن أين هو ؟ لا يدرى أحد »

قال المدير : ولكنه — إذا كان لا يزال حياً — لا بد أن يكون الآن قد جاوز الثمانين ... انتظر ... ولد ... ولد ... نعم ... سنة ١٨٥٠ فهو الآن فى السادسة والثمانين من عمره ... هل تظن ؟. ولكن ... السادسة والثمانين ؟ ... يالله !... أتظن ؟... إنى لا أكاد أصدق ... لقد كان معروفا عنه أنه مسرف فى إنفاق حياته ... لا يبالى أعاش أم مات ... فكيف يمكن ...؟ »

فقال سعيد : « مثل هؤلاء الذين لا يبالون أعاشوا أم ماتوا هم الذين يعمرون »

فقال المدير وهو شارد : ربما ... ربما ... ولكن ٨٦ سنة ؟... هذا عمر !... هذا ... »

فنهض سعيد ومد يده إلى المدير وقال : « سأعنى بالبحث . وإذا وفقت إلى شىء فسأخبرك »

فناوله المدير يده وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦ سنة ؟ أما لو كان حياً ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

— ٢ —

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع فى خلالها كلمة من سعيد ولم يكف هو أثناءها عن البحث والتقصى — عبثا — فأقصر يائساً وصرف

نفسه آسفاً عن عبد القادر التميمى . وكان جميل بك — أو إذا شئت اسمه كاملا جميل بك أحمد القناوى — مخلصا عطوفا رقيق القلب وقد شق عليه جداً أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحواً من أربعين سنة فتنساه الدنيا التى كان يسرها وعلؤها حبوراً وجذلا ولا تعود تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف ... أهو حى أم تراه مات ... وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة انسانية لأنه لم يكن يشك فى أن اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره سببهما يأس عميق آخذ بالكليتين ... وهو مع ذلك الذى يرفه بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويغذيها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والنور كما تفعل الشمس . ولم يسعه إلا أن يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لا يكاد يختفى فيه شىء فى هذا العصر ؛ ورجح عنده لهذا أن الرجل لا بد أن يكون قد لقى حتفه فى أول مراحل هجرته — إذا صح أن تسمى هجرة — ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى ألا يحمل معه ما يدل على حقيقته ، وأخلق به حينئذ أن يكون قد دفن حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به .. وهز جميل بك كتفه ومط شفتيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « إيه ! لا حول ولا قوة إلا بالله »

وشرع يشعل سيجارة وإذا بالتلفون يدق الى جانبه فتناول السماعة متثاقلاً وقال : « نعم » ولكنه ما عتم أن اعتدل فى جلسته وصاح : « إيه ؟ . ماذا تقول ؟ »

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعة وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها فى الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع فى الطبق أربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعاً . وإنه ليهم باشعال الخامسة وإذا بالخادم — فقد كان فى بيته — ينبئه أن « سعيد أفندى الميدانى » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « أدخله .. أدخله » ويسبقه هو إلى الباب

ويدخل سعيد أفندى ويده فى يد جميل بك وهو يقول : « نعم وجدته ... فى غرفة فى ربع قديم فى أعتق أحياء هذه المدينة ... أو هو من أعتقها ... »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد أفندى : « أوه ... هذه حكاية طويلة ... وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم أنى وجدته ... ويمكننى أن أقول لك إنى استعنت بابنه وقد كان اعتقاده أنه مات لا محالة ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة ... هل تعلم أن ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين وأن له حفيدة تزوجت وولدت بنتاً . . ؟ »

فيقول جميل بك : « ليس عجيباً أن يعتقد ابنه أن أباه مات وشبع موتاً ... ولكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك إن هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « إنما أعنى كيف حاله ؟ »

فيقول سعيد : « حاله ... وما ذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين وأقعدته شيخوخته العالية عن العمل ؟ . فقر وضعف وعمش ... حال لا يعلم بها إلا الله »

« ولكن كيف يعيش . . ؟ »

« كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون حقيقته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى ... أليس اسماً غريباً ؟. إن اختياره له ينبئ بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال . . . لقد أدهشنى منه أنه لا يزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه فى الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة ... ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه »

فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف ... ولكنه أبى أن يذهب إليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حملة عليه وخشى أن يأنف ابنه من الانتساب إليه إذا وقف على حاله الزرية »

« وهل قابل ابنه ؟ »

« بالطبع ... وقال له حين رآه ... من يصدق أنك ابنى ! إنى أبدو أصغر منك على كل حال . يمكنك دائماً أن تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة ، فما أشك فى أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى . وأحسب أن بعثى الآن قد خيب أملك فى ... كذلك قال لابنه ... مدهش أن ذهنه لا يزال حافظاً لقوته ... قال لابنه فى جملة ما قال إنى لما كبرت كنت أقول لو عاش أبى لما عاشرته لأنى أستنكف أن أكون فرعاً وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه ... ولكن ذهنه يشرد أحياناً فيخلط فلا تفهم كلامه لأنه يكر راجعاً فى كلامه إلى ذكرياته الطويلة فى حياته الحافلة من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة فتحس أنك تهت وضلت طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذياناً بل كر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار ... ولما قلت له إنك تبحث عنه ضحك وقال : هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف ... وقال عن كتبه لما عرض ذكرها أن خيرها ما لم يكتبه ... ولا تزال أسنانه باقية . وقد قال لى إن متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب فى بقائه حياً الى الآن ... ولما قلت له إن من واجبه أن يملى مذكراته على بعضهم صاح بى : « أعوذ بالله يا شيخ ! حرام عليك .. اتق الله فى يا بنى »

فسأل جميل بك : « وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

« أوه كل شىء ... قال لى إنه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب . وأن كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما يثقل على نفسه جداً أنه لا يرى نفسه يفعل إلا ما يكره ، فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط بالزوار ، ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفيهم من الاخوان ويأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد — لسبب خارج عن ارادته بل ضد ارادته — أنه يعيش كما يعيش الناس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ؛ وقد كبر فى ظنه أنه سيظل حياته هكذا ؛ ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة أو أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا — يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحرية ؛ فكره هذه الحرية الظاهرية ومل السخط على نفسه

فود لو أنه مقيد حقيقة بارادة غيره ليتسنى له على الأقل أن ينحى باللائمة على هذه الارادة الخارجية ويجعلها غرضاً لذمه وطعنه . ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة وركب على بواخرها البحار وأقام فى الموانئ منـدوباً لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلاً تجارياً يجوب المدن ويذرع الأرض داعياً مرغباً ، ثم انقلب مدرساً للغة العربية فى بلاد الأفغان حتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعده فى الحقيقة ، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه عاتٍ فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سناً ؛ وكان قد جمع مالاً فى رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد ، الى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنيهاً قال لى وهو يضحك انه حدث نفسه أنه ينبغى أن يموت بعد أن تنفد فما له رزق سواها ، ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية فأنس به أصحابها وأدركوا أنه عالم وأن فى وسعهم أن يستغلوه فكان يضبط لهم الكتب القديمة التى يعيدون طبعها ؛ وساعده ذلك على اطالة عمره ، فقد أغناه ذلك عن الانفاق من رأس ماله أو ما بقى منه ، ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لأنه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرته أو قلته يكون مابقى له فى الدنيا من السنين .. فهل رأيت أعجب من هذا ؟ »

فأطرق جميل بك شيئاً فشيئاً ثم رفع رأسه وقال : « لاشك أن الأمر عجيب ، ولكن ألم يأخذه ابنه بعد أن اهتدى اليه ؟ ... »

فقال سعيد : « أوه .. إن الرجل شاذ كما تعرف ، وقد أبى كل الأباء أن يذهب إلى بيت ابنه لأن هذا خليق أن يحدث فى رأيه اضطراباً لا داعى له فى حياة ابنه . . وقد أطال النظر إلى البـذلة الأنيقة التى يلبسها ابنه ثم ألقى نظرة على الجلباب البسيط الذى يرتديه هو ، وأشار بيده المعروقة إلى الثوبين وقال : « لالالالا . . دعنى لشأنى فانه غير شأنك » ولم يزد بعد ذلك على الابتسام كلما ألح عليه ابنه فى القيام معه . . .

فقال جميل بك : « والآن ألا نستطيع أن نصنع شيئاً لهذا الرجل الذى كشفنا عنه ؟ ... إن رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقفوا على حجر قديم أفلا ينبغى أن ننبه الناس إلى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حياً وإن كان محسوباً فى أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سعيد : « بالطبع نستطيع . . يمكن مثلاً أن نقيم احتفالاً كبيراً فى أكبر الفنادق ندعو إليه رجال الأدب والعلم والفنون والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم إليهم صاحبنا ... غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بانجاح الحفلة . . »

فهز جميل بك رأسه وقال : « لاشك . . ولكن صاحبنا لا يبالى هـذا . . ولا فائدة له منه على كل حال . . وأنا أخشى إذا دعوناه إلى الاكتئاب أن لا نفوز بشىء يستحق الذكر فنكون قد أهنا الرجل بلا داع . . ثم من يدرى ؟ فقد يأبى هـذا وذاك . . »

فقال سعيد وهو ينهض : « أقول لك . . دع هذا لى . . والله الموفق »

— ٣ —

لم يكن الأستاذ عبد القادر التميمى يبرح بيته ، وكان يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطيل منها ولا يكاد يحول عينه عنها . ولم

يكن يرى شيئاً فى الحقيقة إلا أشكال المبانى القريبة وذلك لضعف بصره ، ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئاً ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر وإنما كان يحدق كالذاهل ، وكانت أسارير وجهه المتجمد تنبسط أو تعمق الأخاديد التى حفرها الزمن فيخيل إلى الناظر إليه أن هذا وقع ما يشاهده ، ولكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك ونقيضه فما كان يبصر شيئاً وإنما كان يدير عينه فى قلبه أى فى ماضيه فيبدو عليه السرور أو الألم أو غير ذلك كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة فى دار من دور السينما . وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحياناً مرتين — فى اليوم ويصغى إليه أكثر الوقت وهو يهضب ويسح بذكرياته التى لا آخر لها . وقال له مرة :

« ما رأيك يا أستاذ ؟ . إن خبر عودتك قد شاع وذاع بين الأدباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك »

فقال بايجاز : « فليتلهفوا »

فقال سعيد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا إليك فى النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل إلى صدهم »

فتجهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن يمنعوا ... إن المكان لا يليق . . ما العمل ؟ . أشر ... »

قال : « اسمع منى وأطعنى ... خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة »

قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك ؟ . هذا مستحيل »

قال : « كلا ... الضرورة تفتق الحيلة ... وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون إليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضاً ... فنفرغ من الأمر كله فى ساعة »

قال : « ساعة ؟ . يا حفيظ ... »

قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم وكل ساعة معرضاً لحضورهم إلى هنا وإزعاجك ... فكر ... »

قال : « صدقت ... ولكن ... حفلة ؟ ... حفلة ؟ ... إن هذا صعب ... »

قال : « لماذا ؟ . أين الصعوبة ؟ . ما عليك إلا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم تنصرف جميعاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلاً ثم قال : « ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى ... إنى أستطيع أن أعيش ... دعنى أنظر ... »

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب ، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفاً على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك فقد كان ابنه — على بك — فقد صار بيكا — عبد القادر التميمى — فى حيرة شديدة من أمره من جراء عناد أبيه ، فانه — أى على بك — رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع أيضاً ، وليس يليق أن يكون أبوه — أى أبو على بك — هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى ربع عتيق — أو جديد إذا أمكن أن يكون هناك ربع جديد — وقد استطاع أن يرجىء لقاء بنيه ونسيبه لهذا الأب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب ، فقد زعم لهم أن المثور عليه

أو الاهتداء إليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها اتقاء أزعاجه إلى حين ، ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ولا سبيل إلى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع ، فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة ثم يظهر بعد أربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على إخفاء مسكن الرجل ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك ، ومن حقها أن تعرف أين يسكن أو يقيم وإلا كانت معذورة اذا هى استرابت فى الأمر كله . أضف الى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق ؛ وقد كانت فكرة الحفلة هى التى أعانت جميل بك على اقناع الصحف بالصبر والانتظار وجعلت الموضوع شيقاً وخليقاً أن يجد القراء فيه مثل لذة الأساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الأمر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ... ؟ لهذا لجأ الى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولا دون الفضيحة التى يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها . فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ظهر يوم الحفلة بعد أن يلبسوه بذلة الى بيت ابنه ومن هناك يذهبون به الى الحفلة فى المساء

— ٤ —

وجاء يوم الاحتفال فذهب اليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه إياها فأبى واستكبر وغضب أيضاً ، وقال إنه ليست به حاجة الى ثياب ولا الى أحد من الناس ، وإنه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه إنسان ، وإنه ماعيب ثيابه على كل حال ؟ . أليس قد قابل بها الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وإيران ؟ فاذا كانت لا تكفى هؤلاء المعجبين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه ، فانه يحسن بسعيد أن يحمل إليهم ماجاء به من الثياب على مشجب ويقول لهم إن هذا مايطلبون وهو كل مايستحقون أن يروا

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها بل فاه بما هو أعنف ، وكان صوته متهدجا ، وكلامه متقطعاً ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب ، وأسنانه تصطك ، فلم يجد سعيد بداً من السكوت والكف عن الألحاح عليه بعد أن وضحت له قلة جدواه ، وسأل الله فى سره الستر والسلامة فى هذه الليلة

وخرجا من الغرفة — سعيد فى ثيابه الأفرنجية التى يلبسها الأفندية من أمثاله ، والأستاذ التميمى فى جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل ، فكأنه « مركوب أبى القاسم » وطربوش مصرى سوى أنه طرى وعليه لفة كانت فى الأصل مزركشة فأصبحت ألوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء فى مركبة وتركها تنتظر فى الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة — هذا ينط على السلم ، وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك عدة مرات ، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التى دخل فيها هذه الحارة ، ويفرقع بصوته ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون الى رأس أمرهم ، حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون و يُضوّضُون ، والسائق يلوّح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج الى الطريق العام

ولا نطيل . ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها ، وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل ، وأشدهم قلقا واضطرابا ، ولا سيما حين عرف إصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عليه سعيد أفندى أن يفاتح فراح يحاور الأستاذ التميمى ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله ، ولكن الرجل كان جبلا لا يتزعزع ، ولما قال : « أنا كما أنا . فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلا به وإلا فانى أرجع الى غرفتى ، فما طلبت أن أجىء ولا أردت أن يعرف ابنى أو سواه أنى على قيد الحياة

« امسك سعيد أفندى وأقصر » وكانت الحفلة فى فندق من أكبر فنادق المدينة وفى أوسع قاعاتها ، وقد دعى اليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكر وجاء قبل الموعد . وجاء غير المدعوين — أو المشتركين — كثيرون وقفوا بحيث يرون الداخلين ؛ واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذى بعث بعد أربعين سنة ، والذى دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره فى القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية

ثم أقبل أحد الشبان يعدو وقال : « جاء الأستاذ » فساد السكون وانقطع حتى الهمس ، وتعلقت الأنفاس ، واشرأبت الأعناق ، واتجهت العيون الى الباب لرؤية هذا الذى كأنما قام من القبر . ودخل الأستاذ فى الثياب التى أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندى ، وأقبل ابنه وراءهم ، ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات ، وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذى الثياب المتبقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللامعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه فآلى ليرجعن الى غرفته . وعرض جميل بك المدعوين على الأستاذ بأسمائهم فصافحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه ، وإن كانوا جميعا قد ترفقوا به ، وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأديرت ألوان الطعام فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه ما اسمه وكيف يصنع ، ولا يتناول إلا بقدر . وكان المدعوون فى أول الأمر يحدجونه بعيونهم ويتبسرونه النظر ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا الى الطعام والحديث . ولكل شىء آخر . — انتهى الأكل ، وبدأت الخطب والقصائد ، والأستاذ مطرق كأنه يصغى ، وكان يهز رأسه من حين الى حين كمن سره شىء — أو ما يسمع

وانتهى هذا أيضا على طوله ، فهمس جميل بك فى أذن الأستاذ : « ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم ؟ »

فقال الأستاذ مستغربا : « أنا ؟ ... أقول كلمة ؟ أرد على ماذا ؟ ... إنى ... الحقيقة أنى لم أكن مصغياً . . لم يكن بالى اليهم »

فذعر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — ، وقال : « ولكن يا أستاذ لابد من كلمة . لا نستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغياً الى كلامهم ... أرجو يا أستاذ ... كلمة شكر قصيرة ... القليل منك كثير »

فهز الأستاذ كتفه وقال « إن هذا غريب !! لقد كنت أفكر فى ... ليلة قضيتها فى كهف ...

فقال جميل بك مقاطعا : « فيما بعد ... بعد الحفلة نسمع ما كنت تفكر فيه ... لا بد أنه كان شيئاً غريبا ... ولكن الآن ... أرجو يا أستاذ »

فالتفت اليه وقال : « ماذا قلت أنهم كانوا يقولون ؟ إنى لم أكن مصغياً »

فقال جميل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها ... كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضاً قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف ... نهايته ... لابد من الرد فاصنع معروفا »

وكان سعيد — خلال المفضلات — قد أدرك وهو فى مكانه أن فى الأمر شيئاً ، فخف إلى جميل فلما عرف المسألة انحنى على الأستاذ وهمس فى أذنه : « إن هؤلاء الناس خليقون أن يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو أننا مخدوعون وأنك لست الأستاذ النبيه وإنما أنت رجل غيره يتنحل اسمه فقم قل كلمة وإلا . . »

ولم يتمها ، فقد نهض الأستاذ معبساً ورفع رأسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب وشفته تختلج وكفاه لا تثبتان على المائدة التى وقف معتمداً عليها ، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح فى أثنائها أنه يعالج نفسه ليردها إلى السكون ويحاول أن يضبط أعصابه ، ويفيء بها إلى الاتزان ، ثم فتح فمه وقال بصوت خافت :

« أيها السادة » وسكت شيئاً وثبت حملاقه ، فكأنه تمثال نصب فى مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف ، ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم فى صراحة سرت فريقاً وساءت آخرين إنه وجد بالتجربة الطويلة أن من المسير أن يهرب المرء فى هذه الدنيا من الناس — ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص — المخلصين والمتكلفين والذين يطلون يوحون إلى نفوسهم أنهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك . . . كلا لا سبيل إلى الهرب . . . وطالب الفرار لا بد له من الجرى الطويل والذهاب إلى أبعد مما كانت الحاجة تدعو إليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه ، بل إن وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب فى هذا الزمان الذى امتد به العمر إليه ... وكيف يهرب الانسان ؟ . إلى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل ... ومن أى مكان يهرب ؟ إن الهرب الصحيح مستحيل ... وقد يستطيع المرء أن يعيش فى الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة .. والهرب من الزمان أصعب . . . ثم يتوهم المرء أنه يعيش لا فى الحاضر بل فى المستقبل والمستقبل ، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون ، ويذهب يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغى أن تكون « إنى أؤكد لكم أنى أعرف هـــذا ، فقد فعلته — أعنى توهمته — وعشت فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون » وقال لهم : إن هذا كله عبث فى عبث ، وأكد لهم أنه لا مسوغ على الاطلاق لأن يفترض الانسان أن للجنس الانسانى مستقبلاً — هذا أولاً — وثانياً أن ما نسعى له ونلح فى طلبه أو تمنيه قد يكون مستحيل التحقيق . وهب تحقيقه ميسوراً فقد يتبين أنه ليس

مما يسيئه أو يرتاح إليه أو يرضى به الجنس الانساني .
وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟ ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التي لا تزول ولا تتغير ممكنة ألا يستفظعها الانسان ويفرق من تحقيقها ؟ على أن التفكير في المستقبل والسعي له لا يمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده ... وهنالك مهرب آخر ، إذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال ، ولكن اللجوء إلى الخيال لا ينفي الحقائق المحيطة بالانسان ... وانتهى الى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون في الحياة ، وهذا لا يعد مهرباً لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بادراكه . إنه استطاع الهرب ، ولو كان هذا مهرباً حقيقياً للجأ إليه . وابتسم وقال إنه يرجو ألا يلجئوه الى هذا الذي ليس مهرباً ...

واستطرد بطريقة ما إلى كتبه وما يلقى من التكريم من أجلها ، فقال : انه واثق أن أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه ولم يكونوا يعلمون أن له كتباً ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده . وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ، ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره إلا بالمجاملة ، وهي شيء حسن في ذاته ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع وأعفته من ضروراته ؛ وهو ليس من هذا الزمن فيحسن أن يرتد ويتراجع الى ما أخرجوه منه ، لأنه ليس إلا قطعة متخلفة من زمن سابق ، ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ...

وظل يهضب على هذا النحو الذي لم يكن منتظراً ولا كان في حساب أحد ؛ وطال الأمر فمل الناس ، وأحس هو الهمس فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه ، أو أن يبغضها اليهم ليتركوه بعد ذلك في سلام ... ولم يطق البعض المقام ، أو طوله ، فتسلل خارجا وتبعه غيره وغيره ، حتى لم يبق إلا دون النصف

ولكل شيء آخر ... عاد الأستاذ الى غرفته لا إلى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه ، فقد أضناه الكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة

وفي الصباح جمع ثيابه وأشياءه وانتقل الى ربع آخر

وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التي طلت أياماً تدعو لها وتروج وفي صدر أكثرها خطبته التي عنى سعيد بتدوينها ؛ فلم يجد الأستاذ وأعياه أن يعرف أين ذهب ، فأسرع الى ابنه على بك يخبره ويسأله ما العمل ؟ فقال على بك وهو يرسل الدخان في الهواء : « أظن أن الواجب أن نحترم إرادته ونعفيه من الأثقال عليه »

ابراهيم عبد القادر المازني

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

قلب الرجل

من القصص الايطالي

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

سمع جو جليلمو رنين الجرس مؤذناً بدخول شخص ، كما سمع حديثاً في البهو ، ولكنه لم يتحرك . ومن عسى أن يكون ذلك الشخص ؟ أهو صبي الصيدلي ؟ أهو الخباز ؟ أم هي الخادمة ...؟ إنه ليعرف تفاصيل حياته البسيطة المملولة معرفة خبرة ووثوق وهو في حجرته المنالية ، حجرة دراسته يسمع من الأصوات كل يوم ما يستدل به على ما يجري حوله من شؤون الحياة ؛ ولقد ألف تلك الأصوات الرتيبة ألفة تامة ، حتى إن ما حدث في ذلك اليوم من أمور جديدة قد اتخذ في ذهنه صورة ما ألف من قبل كأنه رآه بالأمس ، ولذلك لم يثر في نفسه اهتماماً خاصاً . فهنالك الصيدلي مثلاً ، وهو رجل حديث مقدمه ولله الحمد فلا يدري من الأمر شيئاً ، ولن يستطيع أن يحجز الأمور عن وجهها . وراح صاحبنا يحدث نفسه : « ستأتي هنا بعد برهة السنيورا أكاردي ثم يأتي الطبيب ؛ وبعد ذلك يتراجع عمل الجرس فترة ، ثم في ساعة أو ساعتين ينتهي كل شيء كأن لم يكن هنالك شيء »

ولكي يهدهد لهفته ، فتح كتاباً وحول إليه بصره ، منصرفاً عن النظر إلى حديقته الصغيرة التي جدد الربيع خضرتها يومئذ ؛ وكانت حجرة دراسته كحياته محدودة متواضعة ، ولقد اتجه فكره وهو يقرأ إلى تلك الحياة

تزوج في الخامسة والعشرين وهو الآن في الثلاثين ... خمسة أعوام من الوجود الذي لا يميزه شيء ، خمسة أعوام لا مي إلى السعادة ولا مي إلى الشقاء ؛ لقد نجحت أمه فيما ذهبت إليه ، ولقد مهد هو لما جبل عليه من الكسل عن مقاومة أغراضها ، كما خذلت عزيمته فلم يستطع أن يتولى بنفسه شؤون نفسه ؛ وكان قليل الثقة بكفايته أو بمقدرته على تنفيذ شيء ، وراحت الأم تنصح له حينما رأته مقبلاً على مواجهة الحياة ؛ وكثيراً ما ابتدرته بقولها : اتخذ يا بني من (إرين) زوجاً لك . إنها الزوجة التي خلقت لك ، بل إنها المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تجعلها شريكة حياتك . نعم إنها ليست فارهة الجمال ولكنها جادة مجدة ... كذلك ليست بثرية وإن لم تكن فقيرة ، وأظنك لا يمكن أن ترمي في زواجك إلى المال . إنها ستحفظ لك بيتاً طيباً وتعنى بتربية أطفالك ؛ وما عسى أن تطالب فوق ذلك ؟ إن مما لا يحمد لك أن تتابع خيالك وأحلامك إلى ذلك الشيء الذي تسميه ... »

على أنه في الواقع لم يتابع أحلاماً أو يساير خيالاً قط . وقد تزوج من إرين ليرضي بذلك أمه . ثم أخذ يوطن نفسه على أن يألف هذا الضرب من السعادة التي أشارت إليها

ولكنها كانت سعادة فاترة مصفارّة كاذبة ؛ على أن أمه كانت تعلم حق العلم ما ذا تعني بقولها حينما أشارت الى الخيال والأحلام ، فكان حلم جو جليلمو هو ابنة عمته آن ، وقد تزوجت تلك العمة من رجل غني من رجال الأعمال . وكان جو جليلمو يتردد على منزل عمته وهو غلام ، ولكنه حينما طر شاربه حالت بينه وبين ذهابه إلى حيث كانت تقيم آن

وساوس عمته ، وما كان بين المنزلين من فرق كبير فى الثراء . نعم كان حلم جوجليلمو هو تلك الفتاة الجميلة الطويلة الممشوقة القد التى ينبعث العطر دائما من ثيابها ، ذلك الحلم الذى جاهدت أمه فى تبديده ... « وماذا كانت تنتظر آن من رجل مثله ؟ تتزوج منه !! يا إله الناس إنها تنظر الى ماهو أبعد من ذلك ... تحبه ؟ ألم يتبين أنها كانت أبداً تمتع نفسها دون أن تعيره التفاتة أو تتجه لحظة بفكرها إليه ؟ »

وكانت تلك الكلمات كفيلة بالقضاء على حلمه الجميل . وهكذا تزوج من إيرين ؛ والآن بعد سنين من السعادة الهزيلة الفاترة ترى إيرين موشكة أن تنجب غلاما . ولم يقابل جوجليلمو ذلك أول الأمر بكثير من الحماس إذ رأى الزمن يأتى له بشخص آخر يحول بينه وبين الأحلام ، ولكنه أحس بقلبه يمتلىء بالغبطة كلما تصرمت الشهور . ولد ؟ وما الولد ! أليس هو الشىء الوحيد الذى يعلل وجودنا ؟ ثم إنه يرى فيه خير منحة بعد ما لاقاه فى ماضى أيامه من أشجان وآلام ، وأحسن عوض عما فقد من الحب والسعادة

نهض من مكانه هذه المرة وترك حجرته وألقى نفسه فى الممر ؛ وهناك سطعت فى أنفه رائحة العقاقير المنبعثة من حجرة زوجته ؛ ولو أنه أنصت لسمع أنينها ، ولكن صوتا قويا هادئا قطع عليه تيار فكره فجأة ... « هأنذا أتيت ، هأنذا » وكان ذلك هو الطبيب رفيق صباه الذى كثيراً ما تردد على منزله . كان بدينا مرحا مشبع الوجه من الحمرة . ولعل وظيفته هذه التى كانت تنحصر فى إمداد الوجود بأنفس جديدة هى التى زادته حيوية ونشاطا

أتيت سريعاً على قدر ما استطعت ... ماحالها ؟ بخير ... هون عليك لا تضطرب ، لو كنت مكانك لخرجت من المنزل برهة أوجلست هادئا فى حجرتى . سأعود إليك بعد ساعة أو ساعتين وأطلعك على جلية الأمر »

وابتسم الطبيب ثم دخل حجرة المريضة ورجع صاحبه الى حجرته . وقد فكر بعد برهة فى الخروج من المنزل ، ولكن دافعا خفيا لم يتبينه ، دافعا مكونا من الخوف من جهة ، ومن توقع ما يسر من جهة أخرى ، أقعده عن الخروج ؛ فلبث فى مكانه مفكرا ، ولكن أفكاره القديمة لم تلبث أن عاودته ؛ وكان عجبا أن تعاوده فى الساعة التى يرى فيها وجوده يتصل بالمستقبل فى حياة وليده المنتظر ، فتقذف به فى أعماق الماضى خطوة بعد خطوة

وما كان الماضى غير آن ... آن دائما ... آن واسمها وذاتها وكل ما يمت بصلة اليها

لقد رآها مرات بعد زواجه ، ووجد أنها لم تتزوج حتى ذلك الوقت احتفاظاً بحريتها ، كما اعتاد أن يسمعها تقول ذلك ضاحكة . وهى الآن فى السابعة والعشرين لا تزال كما عهدها من قبل مرحة مرهفة . وكانت تزور بينه بين حين وآخر حيث اتصلت أسباب المودة بينها وبين إيرين ؛ على أنها لم تكن تكثر من الحديث معه وكان قصارى ما تبديه نحوه من اللاطفة ابتسامة أو ابتسامتين ، ثم تمد يدها اليه فتصافحه مصافحة الأصدقاء وتنطلق فى سبيلها

وكان يعتقد جوجليلمو أن أمه أخطأت التقدير ،

اذ لم تكن آن كما اتضح له فى شىء مما تصورته من الزهو والكبرياء . ولكنها فى الحق لم تكن امرأة عاطفة

هل زاد عدد الناس فى الردهة ؟ لقد سمع جوجليلمو صوت شخص يكلم الخادمة فى همس . ولقد جعله هذا الصوت ينتفض فى مكانه ، ثم فتح باب حجرته وظهرت له رأس لطيف

« انها أنا يا جوجليلمو ، أتأذن لى بالدخول ؟

ونظر جوجليلمو الى القمطر فى اختلاجة غريبة لم يستطع اخفاءها ، وكأنما كان يحب أن يغيب أفكاره فى ذلك القمطر ، فلقد كانت اختلاجة عينه كاختلاجة من يُرى متلبسا بجريمة ! ولكن آن تقدمت نحوه فى هدوء وهَوْن

« لقد جئت لأسأل ما حال ايرين الآن »

وبدا على جوجليلمو أنه شارد اللب الى حد أنها نظرت اليه نظرة عطف قائلة :

« جوجليلمو أيها المسكين ما أراك الا حائرا ... ! »

ورد صاحبها مغمغما : « لا . فالطبيب عندها »

ولم تلبث أن التمعت فى رأسه فجأة أفكاره حول هذه الآنسة التى يراها الآن تظهر اهتمامها بأمر يمت بصلة الى الحب والحياة ، فزادته تلك الأفكار ارتباكا واختلس نظرة الى جسم آن البض الجميل ، ذلك الجسم الذى رآه قد هيئ أحسن تهيئة لحمل الأجنة

« إجلسى لدى برهة يا آن ... فانى أحمد لك مجيئك الساعة ! »

وسمعت لصوته نبرات غريبة ، وتغير تغيرا عجيبا كما تتغير الموسيقى بتغيير اللحن . ونظرت اليه آن فى دهش وظلت صامتة برهة ثم سألته :

« أأنت فى حاجة الى شىء ؟ هل أستطيع أن أجعل من وجودى فائدة لك ؟ »

وجاء دوره الآن ليجيب ، فان دائرة صمتهما قد اتسعت حتى تركتهما حائرين ؛ وخيل الى كليهما كأنه يستمع الى صوت الآخر ، وكأنما عادت اليهما ذكرى عبارات قيلت من قبل ولكنها نسيت الآن أو امتلأ بها الفكر ، ولكن لم يتحرك قط بها اللسان

وأخيراً قطع جوجليلمو هذا السكون فجأة بسؤال غريب ، ظهر أكثر غرابة لصدوره من شخص خجول مثله ؛ ولقد كان وقعه على آن كقبلة لم يحسن أداءها :

« أنت جميلة كاملة يا آن ... لماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟ »

ولقد التهب خداها من الخجل ، بل لقد ظهر وجهها كله والجزء العارى من عنقها تحت الغراء مشبوب الحمرة ، ولكنها حاولت أن تبتسم لتخفى تلك السحابة التى أظلمت فى عينيها

« فيم تفكر الآن يا جوجليلمو ؟ لقد بقيت عذراء لأنه ... لأنى لم أجد أحداً يخطبنى ... »

وضحك جوجليلمو بدوره ضحكة من قلبه . لم تجدى أحدا ؟ ياعجبا : إن وراءها من عشاق الشباب ما يفوق عددهم عدد من يتوددون الى جميع فتيات المدينة مجتمعات

« من أنبأك هذا ؟ »

« أنبأنى به أمى »

« إن أمك لم تدر من أمر هذه المسألة شيئا ... ولكن إذا فلنقل إنى أقسمت قسما » وأخذت

أن تضحك ثانية ولكنه كان ضحكا تخالطه الحيرة
« فيما ؟ ولكننا حينما كنا صغيرين نلعب معاً
كنت دائما ترين أن الشخص الآخر ... »
« ولكن المرء يقسم بعد ذلك »
« ومتى كان قسمك ؟ »
« لا أذكر ذلك تماما ... وإنما أظنه منذ خمسة أعوام أو ستة ... »
« حينما تزوجت أنا ... أتعنين ذلك ؟ »
وهنا صمتت الفتاة ، وبدت عليها أمارات الارتباك وعضت على شفتيها ، إذ تبينت أن ما فاهت به هو الغباء بعينه
آه . نعم . أذكر أنك كنت مريضة تلك السنة ... ولم يكن يعلم أحد ما حقيقة الأمر . . .
أذكر ذلك — كنت وإيرين فى سويسرا . . .
وسمعت بذلك بعد حين ... « فهل » وتساءل باسماً « فهل كان عزمك وقسمك يومئذ ؟ »
« إلى اللقاء يا جوجليلمو ... إلى ذاهبة وسأجىء ثانية ... أرجو أن تدعونى « بالتليفون » وتخبرنى ما يكون من أمر إيرين »
« نعم سأخبرك . ألا تصافحيننى ؟ »
« ها هى ذى يدى إذاً »
مدت اليه يدها فهزها مطيلا ذلك على غير إرادته . ما ذلك ؟ لم كانت يدها هكذا ترتعد ؟ ولما شد عليها بعد ذلك أكثر خيل إليه وقد خالجه شعور مباغت كما لو أنها أسلمت نفسها اليه مهزومة ...
ألفى نفسه وحيداً ، ولكن العجب والرعب استوليا عليه مما جرؤ على قوله أو التفكير فيه ، وخيل اليه كأنه يرى الواقع شاخصاً أمامه يسأله : « ألا تفهم » ؟
لا . إنه لم يفهم . لقد أسلم قياده بالأمس ورضى أن يقوده ضلال أمه . وهكذا ألفى نفسه على شفا منحدر لم يجد بداً من النزول الى قراره . والآن يرى الماضى فى ضوئه الحقيقى . ويرى الآن أنه حينما كان يكثر من الذهاب ليرى آن كان وجهها يتهلل بشراً وفرحاً ، وأنه حينما كان يغيب عنها كانت ترى مكتئبة لذلك . وأعقب ذلك مرضها ؛ ثم توالت السنون التى أغفل فيها أمرها ، فلم تر بداً من أن ترفض فى عناد أن تتزوج من غيره . . . . ولكن لم ظلت ساكتة لا تخبره عن شىء ؟ أكان فى ذلك جرح لكبريائها ؟ أم هل كانت تخشى الذلة لا . إنها لم تفكر فى شىء من هذا ..
والآن ؟ هذا البوح المباغت ... واحمرار وجهها من الخجل ... ويدها المرتعدة ... ألا إنها لا تزال تحبه ... وحدثته نفسه قائلة « لا ليس هذا ممكناً » ولكن قلبه كان ينبض بين جنبيه بما يؤكد الغريزة . كان ذلك كذلك ؛ كان ذلك كذلك ...
وبينا هو كذلك إذ دوت فى أرجاء المنزل صرخة ألم قطعت عليه تيار أفكاره وأعادته ثانية الى حقائق الحياة ، الى الواقع الذى لا يشوبه خيال ؛ فى تلك اللحظة أوشك أن يولد له غلام ، وهو قطعة منه تمتد بها حياته فى سجل الوجود وتتصل بالمستقبل ، فعجب كيف يحزن على ما فاته من سعادة الحب بينما هو مقبل على رؤية ابن له . وأى سرور أعظم من أن يرى المرء فلذة من كبده بين يديه ؟ ولكن آن ... آن

الجنية الساحرة ؟ إن طيفها يملأ ناظريه ، وسحرها يشيع فى نفسه . يا له من موقف ! إنه يرى نفسه بين سعادتين : سعادة أفلتت منه وصارت من تراث الماضى وذكرياته ، وسعادة توشك أن تحيط به ، فيمتلئ قلبه بهجة . ولكن ... ولكن ألا يمكن أن يكون منهما مزيج فتكمل احداهما الأخرى ؟

نادى الطبيب جوجليلمو ووقف أمامه مصفاراً مضطرباً ، وقفز جوجليلمو متسائلاً فى لهفة :

« ماذا حدث ؟ هل فى الأمر شىء ؟ أجبنى ! »

« نعم ، يؤلمنى أن أجيبك أن الخطر يحدق بها فلقد طرأت مضاعفات من حيث لا أدرى ، ولكن لا يزال هناك أمل ، أمل يتلخص فيما تستطيع الجراحة أن تعمل . لقد رأيت الواجب يقضى على أن أخبرك ... »

تحير جوجليلمو وفكر فى زوجه ، تلك المرأة المسكينة التى تجود بحياتها فى عذاب وألم ، وأردف الطبيب قائلا :

« هل لك أن تجيبنى عما أسألك عنه ؟ إن ضميرك هو الذى يريك الآن ماذا يجب أن تفعل إذا كان لا يمكننى إلا إنقاذ أحدهما : الأم أو الوليد . فمن تختار ؟ »

« ماذا ؟ » « ماذا تقول ؟ » هكذا راح جوجليلمو يتساءل صارخا وعلى وجهه صفرة كصفرة الموت

فقال الطبيب : « تلك هى الحقيقة ، فلا يستطيع العلم أن ينجى الاثنين معاً ؛ فاما الأم وإما الوليد . فكر برهة ثم أخبرنى ... »

« نظر جوجليلمو نظرة فرأى حياته الجديدة جلية أمامه ، تلك الحياة التى ساقها اليه القدر : ولد هو أمله فى الحياة وغايته من الوجود ، ثم آن وهى سعادة قلبه من الحب . سيتغير كل شىء وسيتجدد كل شىء . ثم سيحل محل تلك السعادة الهزيلة الفاترة سعادة رائعة ناضرة ، سعادة تحقق كل ما تصبو نفسه إليه . إذا ماتت إيرن فسيتخذ آن زوجا له . ليس أمامه إلا أن يختار الآن . ومن ذا يلومه ؟ أليس يسير وفق قوانين الحياة ، وما تقتضيه غريزة النوع الانسانى ؟

وصاح جوجليلمو متأوهاً : « يا إلـه السماء ! »

وحدثه قلبه ملحاً : « انك لا تحب زوجك . وإذا بقيت فسوف تمضى السنون وأنت تعيش مع امرأة لا ترى للحياة معنى إلى جانبها . فكر مرة ثانية كيف فقدت المرأة الأخرى ... وكيف كان ذلك نتيجة جهلك وضعفك ... هيا ... هيا كلتان ... انطق ... أترى الأمر هكذا صعباً ؟ انطق أيها الأحمق الغبى وقل : « نج الوليد »

ولكنه رفع رأسه ، وعلى وجهه صفرة خفيفة ووجه الخطاب إلى الطبيب قائلا فى ثبات :

« نج الأم »

الخفيف

آلام فرتر

لشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد وثمنها ١٥ قرشاً

لينورا

قصة مروعة من أساطير القصص الشعرى

للكاتب الألمانى برجر

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

هذا ضرب من القصص الشعرى ، تدار موضوعاته على الأسطورة العجيبة أو الواقعة الرائعة ، ويجرى نظمه على نسق من التقطيع والترديد ، تتردد المعانى والصور فيه على قوة من التعميق والتوكيد

والشعراء الألمان فى هذا المجال لا يسبقهم سابق ، ولا يلحق بهم لاحق . فلهم فيه وحدهم قصب السبق وفضل التبريز

وهذه القطعة من أروع الأمثلة فى هذا الباب ، ولا يدانيها غير أمثالها فى شعر جوته وشيلر . ولها شهرة كبرى فى الأدب العالمى ، وقد ترجمت إلى كل اللغات عدة مرات ، وأوحت إلى أعلام الرسامين بدائع اللوحات ، ولكبار الموسيقيين أقوى الألحان

فى مطلع الفجر هبت « لينورا » آبقة من أحلام مزعجة ، وهى تسائل نفسها : « ولهلم ، يازوجى : أترى صرعك الردى ونفذ فيك سهم القضاء ، أومال بك الهوى فخنت ميثاق وأخفرت عهدى ؟ أترى تطول غيبتك إلى أبعد من هذا ؟ »

فانه فى ليلة العرس نفسها ارتحل الزوج فى ركاب الملك فردريك إلى ميدان القتال عند مدينة براغ ، ولم يطالعها بخبر عن صحته من ذلك الحين

ولكن الخصمين الملك والأمبراطورة تولاهما الكلال من هذه المعارك الدامية ، وسكنت ثائرتهما رويداً ، وفى آخر الأمر عقدا الصلح . وارتد كلا الجيشين عائدين إلى الأوطان بين نفخ الأبواق ورنات الصنوج ، متوجين بالأكاليل من أوراق الشجر الناضرة

وماجت الطرقات والجسور من كل حدب بأفواج لا ينقطع فيضها من الشباب والشيب يهرعون إلى لقيائهم ، وكم هتف أبناء وزوجات عند رؤية غائبهم : أن الحمد لله . وترامت كل خطيبة بين ذراعى خطيبها تغمغم : مرحباً بك ! إلا « لينورا »

— وا أسفاه ! فقد انتظرت طويلاً فى غير طائل قبيل اللقاء . فجعلت تجوس الصفوف طرداً وعكساً فى كل ناحية ، وتسائل العائدين ، فما نقع أحد غلتها بنبأ عن زوجها المحبوب . . .

وهاهم أولاء قد انصرفوا . فارتمت على الأرض تمزق شعرها وتتمرغ مشدوهة هاذية

فبادرت أمها إليها : « لك الله ! ماذا دهاك يابنيتى المسكينة ؟ » وضمتها إلى صدرها

— آه يا أماه ، يا أماه ، لقد مات ! مات ! عفاء على الدنيا وعلى كل شىء . لا رحمة عند الله . يا للويل ! يا ويلتاه !

— كان الله فى عونك وعفا عنك : يا بنيتى ، إضرعى إلى رب السموات . الخير فيما يفعله . وإن يمنع عنا غوثه

— آه يا أماه ، يا أماه : إنك واهمة . إن الله تخلى عنى . وهل أغنى ما أسلفت من صلوات ! فماذا هى مغنية اليوم عنى ؟

— اللهم رحماك ! من يعرف الله معرفة اليقين يوقن أنه لا يتخلى عن عباده . وإن سر القربان المقدس ماسح عنك أوجاعك كلها باذنه

— آه يا أماه : أنى لقربان أن يرد الحياة إلى الموتى . . !

— مهلاً يا بنيتى . فما يدريك ؟ لعله خان ودك وعقد أواصر الألفة بفتاة غيرك فانسيه ، وأعرضى عن ذكره . هلمى ! لن يحسن الله عقباه . وسيكون مثواه جهنم وبئس المصير

— آه ، يا أماه ، يا أماه ، من مات فقد مات . ومن فقدناه فقد فقدناه أبد الدهر . فلم يبق لى غير الردى مورداً . ليتنى لم أولد ولم أك شيئاً ! يا شعلة حياتى انطفئى ، انطفئى فى ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسنى !

— اللهم رحماك ! لا تحاسب ابنتى على ما فرط منها . إنها لا تعى ما تقول . فلا تحصه عليها ذنوباً وآثاماً . وأنت يا بنيتى ، تناسى هموم الأرض واذكرى الله ونعيم السماء . فما يزال زوج فى السموات

— آه يا أماه ، ما النعيم ؟ يا أماه ، ما الجحيم ؟ النعيم حيثما كان ولهلم ، والجحيم حيث لا يكون . انطفئى يا شعلة حياتى فى ظلمات العدم الرهيبة . فلا رحمة عند الله . أواه ، ما أتعسنى !

وهكذا كانت سورة اليأس الجامح تمزق قلبها وتفرى روحها . فهى تقدح فى العناية الالهية وتثنى عليها . وما زال هذا حالها ، تدق صدرها تفجعاً وارتياعاً ، وتقلب كفيها توجعاً والتياعاً ، إلى أن جنحت الشمس للمغيب ، ودلفت النجوم الزواهر فى قبة الفلك

ولكن ... أى حس هذا فى جنح الليل خارج المنزل ؟ طَقْ ! طق ! طق ! لكأنه وقع سنابك جواد ... ثم كأن فارساً يترجل عنه فتسمع صلصلة سلاحه ... وهو ذا يصعد درج السلم ... صه ، صه ... الجرس يرن رنيناً رفيقاً ... ثم صوت رفيق يقول من خلال الباب :

— هيا ! هيا ! إفتحى يا صبيتى الحسناء ! أساهرة أنت أم نائمة ؟ ومستغرقة فى فرحة أم شرقة بالدموع ؟

— ماذا ! ولهلم ! أهو أنت ؟ فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! لقد كنتُ ساهرة أبكى ... وا أسفاه ! شد ما تألمت ... ومن أين أنت آتٍ راكباً جوادك ؟

— نحن لا نمتطى الجواد إلا فى منتصف الليل . وإنى قادم من أقاصى بوهيميا . وهذا علة وصولى إليك متأخراً لأمضى بك معى

— ولكن ، يا ولهلم ! ألا تدخل هنا أولاً ، فأننى أسمع الريح تصفر فى الغابة ...

— دعى الريح تصفر فى الغابة يا صبيتى الحسناء . فماذا يعنينا من صفير الريح . إن جوادى يفحص الأرض بحوافره ، والمهماز يرن فى شاكلته ؛ وليس فى الامكان بقائى هنا . هيا البسى نعلك يا لينورا ، وتعالى اركبى رديفتى على صهوة الجواد ، فأن أمامنا مائة فرسخ نقطعها قبل أن نبلغ إلى مقرنا

— وا أسفاه ! كيف تريد أن نقطع الليلة مائة فرسخ لنبلغ إلى مقرنا ؟ إسمع ، هذه دقات الناقوس تؤذن أيضاً بانتصاف الليل

— واهاً ! واهاً ! القمر مشرقٌ وضاح ... وما أسرعنا فى السرى نحن الأشباح . وإنى أراهن أن سأصل بك الليلة

— خبرنى إذاً أين مقرك ، وكيف فراش عرسك ؟

— بعيد . جد بعيد من هنا ... ساكن ، رحاب ، ضيق ، يتكون من ستة ألواح كبار واثنين أصغر حجماً

— وهل فيه متسع لى ؟

— لنا معاً ؛ فتعالى يا لينورا . إركبى رديفتى على صهوة الجواد ؛ فان وليمة العرس مهيأة ، والمدعوون فى انتظارنا

فلبست الصبية نعلها ، وبادرت بالخروج ، وقفزت على رداف الجواد ، ولفت ذراعين لها فى بياض السوسن حول الفارس الذى تحبه ؛ وانطلق

الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً . ودوى وقع سنابكه . وكان الجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ! وما أشد قمقمة الجسور تحتهما !

— أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ، كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— لا ... ولكن مالك والموتى ؟ دعهم في سلام ... ترى ما هذه الضوضاء وهذه الأناشيد ؟ والى أين تتجه تلك الأسراب من الغربان ، صه ! ... هاتيك دقات ناقوس ، وهذه أناشيد جنازة

— إنه ميت عندنا يراد دفنه

واقتربت الجنازة وتعالت الأناشيد مرددة الأصداء كالنقيق الأجش في جنبات المغايض والمستنقعات

— عليكم بعد منتصف الليل أن تدفنوا الجثة مشيعة بالنواح والأناشيد المعولة . أما انا فذاهب بزوجتي ، وإني أدعوكم جميعاً الى وليمة العرس . تعال أيها المرتل ، أنت وفرقتك . تقدموا واصدحوا بترنيمة الزفاف . وأنت أيها الكاهن لتبارك زواجنا

عندئذ انقطع النواح والأناشيد ... واختفى النعش ، وسار مشيعو الجنازة وراء العروسين تلبية للدعوة ... مرحى ! إنهم ليلاحقون الجواد عن كثب . وانطلق الجواد ركضاً ينهب الأرض نهباً ، ودوى وقع سنابكه ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير المروج والأحراج والمزارع يمنة ويسرة أثناء كرهما ، وما أسرع تطاير القرى والدساكر والمدن !

أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح أتخافين أشباح الموتى ؟

— أواه ، مالك والموتى ؟ دعهم في سلام

— أنظري ! أنظري ! أترين الى جانب هاتيك المشانق أشباحاً تتحرك وهي في رقة الهواء يفضفضها نور القمر ويبديها للعيان ؟ انها ترقص حول عجلة التعذيب . إيه أيها الأنجاس المناكيد ! تعالوا اتبعوني ولترقصوا في حفلة عرسي ... إننا ذاهبون إلى وليمة العرس الزاهرة

فاندفع الرهط كله وراءهم ، ولتدافعه مثل خشخشة الريح في الورق الجاف ، وانطلق الجواد ينهب الأرض نهباً ... والجواد والفارس تكاد تنقطع أنفاسهما ، والحصى يقدح الشرر تحتهما

واهاً ! ما أسرع تطاير كل شيء ، كل ما يجلوه ضوء القمر من حولهم ! ... ما أسرع انسياب السماء والنجوم من فوق رؤوسهم !

— أخائفة أنت يا حبيبتي ؟ القمر مشرق وضاح ... مرحى ! كذا تكون سرعة الأشباح ...

— آه يا ربي ! مالك والموتى ، دعهم في سلام

— تجلد يا جوادي الأسحم ! كأني بالديك يصيح مؤذناً بوشك انبلاج النور ، وعما قليل تكون الساعة الرملية قد أفرغت مافيها ... اني لأحس نسمات الصباح ... الوحى الوحى ياجوادي ! ... لقد أشرفنا ، لقد أشرفنا على غاية رحلتنا ... سينكشف لك فراش عرسنا ... ما أسرع الأشباح ... لقد وصلنا

واندفع — مطلقاً العنان لجواده — الى باب حديدي كبير ، وقرعه بمذبة سوطه قرعة خفيفة فانفضت المزاليج وانفتح الباب على مصراعيه بصرّ صريراً . وانطلق الجواد كالشهاب حاملاً

يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

١٢ أكتوبر ...

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سياراتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالي ببابها مكدسين كالذباب . وكان مساعدي قد خر إلى جواري صريع السكرى ، ولم يهمني أمره ، ولم يدر بخلدي قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب الى مشاهدة الجلسة بجواري كما تشهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأرفقن به في أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف ،

وأوصيته أن يمضي بالمساعد إلى منزله ، وحييت المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضي في الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضي حتى وجمت ؛ ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم في القاهرة ولا يأتي إلا يوم الجلسة في أول قطار ، ويسرع في نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذي يعود إلى القاهرة . ومهما زادت

صاحبه بين قبور متكاثرة تتبدى تحت ضوء القمر في كل ناحية

هنا ، يا للهول ! وقعت في التو واللحظة آية مرعبة : تساقطت عباءتنا الفارس إرباً إرباً كالعهن المحروق . ولم تبق من هامته إلا جمجمة معروقة ؛ وحال جسمه هيكلا عظمياً محتقباً ساعة رملية ومعتقلاً منجلا

وشب الجواد الأسحم حنقاً ونفث شرراً . وعلى حين بغتة ساخ وغاب في أعماق الأرض ؛

وتصوبت من أجزاء الفضاء صيحات وصيحات ؛ وتصعدت من القبور تحت أطباق الثرى أنات وأنات

فخفق قلب ليونورا خفقة انتقلت بها من الحياة إلى الموت

فتحلقت الأرواح تحت ضوء القمر حولها ، ورقصوا وهم ينشدون : « الصبر ! الصبر ! مهما هاض الألم قلبك وصدع كبدك ، فلا تعبي في حق رب السموات أبداً . هاأنت ذي قد أسلمت جسمك عفا الله عن نفسك »

عبد الرحمن صدقي

القضايا وبلغ عددها فان هـذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجـل ذو وسواس ، وهو بعـد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطىء فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ؛ ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هـذا الريف ؛ وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقنى جلسته مر العذاب ، فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى علىّ أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكا طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصـد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدرى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع

* * *

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فاذا أمامنا سبعون مخالفـة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : إن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفـة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هـذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدرى العـلة . فكنت أقول فى نفسى : « إرفع أسعارك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان افندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاظم فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن فى مد وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت ياشعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمشهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله أكل عيش »

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق ؛ فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للماثل بين يديه :

— أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة

— يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه ، ولا مؤاخذة ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد

— غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى

بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقد ملأوا المقاعد و « الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات ... فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهمونى الحكاية : الجلسة كلها خرقان خارج السلخانة .! وحملق فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفطن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلا نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد ، فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ! تحكم على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة

— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جوابا . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطالب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلىّ وقال :

— النيابة ..

— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هـذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون .! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :

— غرامة عشرين .! غيره

فنادى المحضر اسم امرأة ، فحضرت مومس ريفية قد زججت حاجبيها بعود ثقاب ، وطلت وجنتيها بذلك الأحمر الفاقع الذى تطلى به صناديق الدخان « السمسون » وصورت بالوشم صورة قلب يخترقه سهم على ذراعها العارية ، ووضعت فى معصمها أساور و « غوايش » من المعدن ومن الزجاج الملون . فنظر إليها القاضى وقال :

— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك

فوضعت يدها فى خصرها وصاحت :

— هو يا روحى مَن وقف قدام باب بيته كفر ؟ !

— وقوفك فيه اغراء للجمهور

— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضى عمرنا ما وقعت عيننا على جمهور ، ولا مر من قدام منزلنا « ادلعدى » جمهور

— غرامة عشرين ... غيره

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما ان مثل حتى ابتدره القاضى :

— انت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع :

— عشنــا وشفنا الـكلاب تتسجل « زى الأطيان » وتبقى لها حيثية !

— غرامة عشرين ... غيره

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هـذا النحو ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليـه أن يؤمن بحقيقة ما ارتكب . إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها ، لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ؛ ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنح » ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت ابراهيم الجرف . فظهرت فلاحة عجوز تدب فى القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . فوجهها الى القاضى فوقفت تنظر اليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت الى الوقوف بين يدى المحضر المحترم . وسألها القاضى ووجهه فى الورق :

— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد

قالتها وكأنها توجه الخطاب الى المحضر فغمزها قزمان أفندى ووجهها الى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى :

— صنعتك ؟

— صنعتى حرمة

— انت متهمة انك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة

فتركت المنصة ووجهت الـكلام الى المحضر

— وحياة هيبتك وشيبتك إنى ماعضيت أبداً . أنا حلفت ووقع منى يمين أن البنيـة ما يقل مهرها عن العشرين بنتو ...

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر اليها صائحاً :

— تعالى كلمينى هنا ، أنا القاضى ، العضة حصلت منك ؟ قولى نعم أو لا ، كلمة واحدة

— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لـكن كله إلا العض

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه وقد لف بنصره فى رباط صحى ، فسأله القاضى عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

— أنا يا حضرة القاضى لا لى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة ومافيها إنى كنت واسطة خير وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيـه القاضى وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلاً : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى « ست أبوها » خطبها فلاح يدعى « السيد حريشـة » وعرض مهرا قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبـل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد الى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صغير يطلق عليه اسم « الزنجر » فذهب من تلقاء نفسه الى أهل العروس وأبلغهم كذبا أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع الى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد

الطعام يهيأ ويقدم الى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة ، يا شماتة الأعادى ! والنبى ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام الى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده الى الأوزة وجعل ينهش منها نهشا دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ؛ فصرخ صرخة داوية . وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعا وخرج به وهو يحرق الأرض : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم وقال كالمخاطب لنفسه : « يا ترى أنا حلفت الشاهد اليمين ... » والتفت الىّ قائلا : « يا حضرة وكيل النيابة . أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ ؟ » فجعلت أتذكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر أقوالك من أولها »

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنى وتثاءبت وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى ، ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصيح بى : « النيابة ! طلبات النيابة . » ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فاذا الاصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامية » الوسطى للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى الى العجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالمضة فى نظرها هى ما زالت المضة ، فما الذى حولها من جنحة الى جناية ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين

ونوديت القضية التالية فاذا هى شجار بالهراوات وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتداً صارخاً فى وجوههم : « جمل » ؟ بقى تخرج بنتى على جمل ! أبداً . لابد من « الكوميل »

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدال الى رفع العصى وإسالة بعض قطرات من الدماء لامناص منها فى مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين فى الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التى تمر بالطرق الزراعية . وحكم القاضى فى هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرح » و « الدخلة »

على خير ! ... غيره !

فنادى المحضر بصوته الممتلىء « قضايا المحابيس » وذكر اسماً من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم » « فقلت فى نفسى » تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ماشاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عينى منذ الآن فرأسى أحوج ما يكون الى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت «وابور غاز» ...

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا نهبت ...

فالتفت القاضى الى المحضر قائلا : « هات الشاهد » فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفيّة » ، فحلف اليمين وقال انه أشعل «وابور الغاز» ليهيىء الشاى لبعض «الزبائن» الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال ربى صغير يبيع السكر واللبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحيانا بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل يحضر الابريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر . وفجأة نظر الىّ وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكت أن صحت فى ضيق : « سبحان الله ! ! أنا سمعت الشاهد حلف » فقال لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقنى فهمست : « تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى الى بقية الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز » بناره ؟ !

فأسكته القاضى بأشارة من يده قائلا :

— تسألنى أنا ؟ ! أنا عمرى ما اشتغلت «حرامى!» . ونظر الى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم بصيح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق به وابور .. والقضية ملفقة من ألفها الى يائها ... » وأراد المحامى ان ينطلق فى هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

— حلك يا استاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام باب الدكان ! فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى

فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا لى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا بى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس

(يتبع) توفيق الحكيم

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

وكانت عوامل ثلاثة تتنازع عواطف الشبيبة حينذاك : ماض منقض لم يزل يرجف ظله على الأطلال حيث تموت قوات الأثرة وعصور العنف ، ومستقبل منفرج الأفق بعيد المجال لا يلوح منه غير أوائل ذرات النور ، ومدى بين هذين الحدين أشبه بالمحيط الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد : مدى مضطرب كالبحر الزاخر تتلاعب به العواصف ويهدد بالغرق كل ما يحمل ولا يلوح عليه إلا بعض البواخر الجريئة يجتازه صاخبة من حين الى حين

في مثل هذه المفاوز كان على أبناء العصر أن يهتدوا : وتلك هي المشاهد التي كانت تنتصب أمام فتيان ملء إهابهم العزم والقوة ، وهم أبناء الامبراطورية وأحفاد الثورة . أما الماضي فما كانوا ليرتضوا به ، وما يتحكم الانسان في عقيدته ، ولكنهم عشقوا المستقبل عشقاً شبيهاً بشغف بيكماليون عاهل صور القديمة بشبح فاتنة من عالم الجن ، فكان المستقبل في بصيرتهم كدمية من رخام هاموا بها فباتوا يتوقعون تورد عروقها بدم الحياة . وهكذا لم يكن لهؤلاء الفتيان إلا زمانهم تسوده روح العصر ، ملاك غسق لا ينفصل عن النهار ولا يتصل بالليل ، وقد شهدوا هذا الملاك مقتعداً كومة من العظام متلفعاً برداء أنانيته ، وأعضاؤه ترجف من لفحات الصقيع

فشعروا بغصة الموت عندما لاح لهم هذا الشبح نصفه مومياء ونصفه جنين ، فاقتربوا منه والروع ملء قلوبهم كما يقترب السائح من مومياء ابنة أحد أشراف سارقاندان في ستراسبورغ حيث تعرض محنطة بحلى خطبتها . وما يتمالك من يشاهد هيكل هذه الطفلة من الارتعاش وقد تحلت يدها المتقمة بخاتم العرس وانتثر رماد رأسها على أزاهر الليمون البيضاء

وكان نابليون بمروره على العالم قد زعزع كل ما فيه ، كما عاصفة تجتاح الغابات فتهز باسقات أدواحها وتغادرها واجمة في صمت رهيب . وكان الملوك قد شعروا بتيجانهم تميد فمدوا اليها أيديهم فلم تعثر إلا على شعورهم وقد وقفها الذعر على رؤوسهم

وكان بابا رومة قد قطع ثلاثمائة فرسخ ليبارك الامبراطور ويضع التاج على مفرقه ، فلم يتورع هذا الامبراطور من اختطاف التاج من يده

وهكذا كان كل شيء قد ارتعش فى غابة أوربا القديمة المروعة ، وعقب السكون هذه العاصفة الهوجاء

يقال : إذا ما صادف السائر كلباً هائجاً فتابع السير برباطة جأش وبخطوات متزنة دون تردد ، لا يلبث الكلب أن ينبح بهدير مختنق ثم ينصرف ؛ ولكن إذا بدرت من عابر الطريق بادرة تدل على خوفه فأخذ بانتظام خطواته مسرعاً بخطوة واحدة فان الكلب يتأثره مستأسداً ، وإذا ما نشب فيه أنيابه فانه لا يقف حتى يفترسه

لقد رأت أوروبا أكثر من ملك ظهرت منه بادرة الخوف فى ثائرتها أمام شعبه فذهب فريسة لهذا الشعب ، ولكن مثل هذه الكارثة لم تكن تقع على الملوك جملة فى آن واحد ، لذلك سقط الملوك على التتالى ولم تسقط الجلالة الملكية . ولكن أمام نابوليون ارتعشت الجلالة الملكية نفسها ، فبدرت منها البادرة التى تؤدى الى الهلاك . وما ارتعشت جلالة الملك وحدها حينذاك بل ارتعش معها الدين والشرف وكل سلطة إلهية وبشرية

ولما مات نابليون استعادت السلطات الالهية والبشرية روعها ، ولكنها لم تجد فى الشعب من يعتقد بها بعد

إن فى معرفة ما يمكن أن يقع لخطراً ، لأن الفكر يتجاوز الأمكان بافتراضاته ؛ وليس القول بامكان وقوع أمر كالقول إنه وقع فعلا ، وما التأكد إلا أول عضة للكلب المستأسد

لم يكن نابوليون الثانى إلا آخر شرارة من نار الاستبداد ، فقد أعدم الملوك لينسج على منوالهم ففعل بهم ما فعله فولتير بالكتب المقدسة

وسمعت الدنيا بعد ذلك ضجة هائلة ، هى صوت صخرة القديسة هيلانة تسقط على العالم القديم . ولاحت نجمة التفكير فى السماء بأشعتها الباردة كوشاح آلهة الليل فغمرت بها الدنيا كلها الكفن المروع

وكانت أوربا قد رأت من قبل عدداً وفيراً ممن يعتقون الأشراف ويتهددون الكهنة ويتآمرون على الملوك ، ولكنها ما عرفت ابتسامة الاحتقار قبل أن مر الامبراطور وتوارى عن العيان ، فكان إذا اخترق الجمع شريف أو كاهن أو عاهل يهز الفلاحون رؤوسهم متذكرين ما شهدوا من معارك ويقولون : لقد نظرناهم فى غير هذا الزمن وفى غير هذا المكان وقد كانت وجوههم على غير ما نراه اليوم

وإذا ما ذكر أحد العروش والهياكل كانوا يقولون : إنها عوارض من خشب سمرناها نحن ثم اقتلعناها

وحينما كان الخطباء يقولون : لقد رجعت عن غوايتك أيها الشعب ، فدعوت إليك ملوكك وكهنتك ، كان الشعب يجيب قائلاً : « نحن لم ندعهم ، وما دعاهم إلا هؤلاء المتشدقون »

وإذا قيل للشعب : (عد إلى الطاعة والسكون ، افلح الأرض واخضع) كان الشعب ينتفض وتتحرك السيوف فى أغمادها وقد علاها الصدأ فى زوايا الأكواخ

ولكن الخطباء كانوا يضيفون إلى كل هذا قولهم : (عد إلى السكون أيها الشعب فقد أضناك الجهاد بلا جدوى ، ولا تطلب الاعتداء وليس من يعتدى عليك)

فكان الشعب يرتضى بهذا القول ؛ أما الشبيبة فما كانت لترضى به

لاريب فى أن الانسان تتنازعه قوتان مجهولتان

تصليان داخله حربا عواناً إلى آخر حياته ، فاحداها تبحث وتسبر المستقبل بسكون متحسسة تستنبط أحكامها من العبر ، والأخرى تتحفز للوثوب إلى المستقبل منجذبة إلى ما لا تعلم ؛ وعندما تسود الانسان عاطفته يتبعها العقل منذراً باكياً ؛ وإذ يقف الانسان مجيباً لدعوة العقل ، تهتف الأهواء قائلة : (وأنا هل يجب أن أموت) ؟

وابتداء الأسى يختمر فى القلوب الفتية ، إذ حكم ملوك الأرض على الشبان بالراحة والسكون وقذفوهم بأشد الأمراض أوجاعاً : بالبطالة والضجر ، فأحسوا باضمحلال الأمواج التى كانوا أعدوا لمصارعتها سواعدهم القوية . وسادت السكينة على هؤلاء المصارعين الذين كانوا مرخوا أعضاءهم عبثاً بالزيوت . فاندفع الأغنياء منهم إلى ميادين الفحشاء ، والمتوسطو الحال وخضعوا للقضاء وتحولوا الى الكهنوت والجندية ، أما الفقراء فلم يجدوا سوى الحماس البارد فارتموا فيه بالأقوال الجوفاء كما يرتمى الجاذف بنفسه فى البحر الذى لا ساحل له : بحر الابتلاء بالجدل بعيداً عن العمل

وعا أن الضعف البشرى يقود الناس الى الاجتماع والتعاون ، لم يلبث هؤلاء الشبان أن اجتمعوا فوجدت السياسة مرعاها الخصب بينهم . وهكذا كانت الشبيبة تخرج من مصارعة حراس المجلس التشريعى لتتجه الى المسارح حيث تشاهد (تالما) لابساً قبعة تشبه قبعة الأمبراطور ، أو تسير الى المدافن لتحتفل بمأتم نائب من الأحرار ، لتعود أخيراً الى مساكنها كل مساء شاعرة بفراغ حياتها وعبث محاولاتها

وما كانت حياة المجتمع الداخلية بأقل بؤساً من الحياة الخارجية ، فساد الناس الأسى والجمود ، وتسلط الرياء على العادات ، وأصبح الدين مشوباً بالأفكار الانكليزية فما كتسح الحزن كل ما كان من دلائل المرح القديم

ولعل المنافية كانت تمهد بذلك طرقها الجديدة فظهر اللألاء المبشر بالمجتمع المنتظر ملقياً فى قلوب النساء بذور الحرية التى ستطالب المرأة بها فى آتى الزمان

وانشق الرجال عن النساء فى المجتمعات الباريسية : فلبست النساء البياض كالعرائس ، واتشح الرجال بالسواد كالأيتام ؛ وتبادل الفتيان لفتات العداء . وما هذا الثوب الأسود الذى يلبسه رجال عصرنا إلا دليل انقلاب مريع ، لأنهم ما لبسوه قبل أن تساقطت شارات الشرف فتمزقت الأزياء القديمة وتناثرت أزهار الأثواب المزركشة على الحضيض ؛ فكأن الانسان بعد أن تحكم بعقله وهدم ما كان يعتريه من الآمال ، وقف متشحاً بالسواد ليتلقى كلمات التعزية على المفقود . وسادت عادات طلاب العلم وأرباب الفن تطورات نشأت من التطور العام ، بعد أن كانت تلك العادات تحلى الحرية الحقيقية ، ومسرات الشباب النقية . انفصل الرجال عن النساء فاصلت بينهما الاحتقار نصلاً لا شفاء لجراحه . ففقد الرجل حب المرأة فاندفع إلى الكؤوس ليستعيض ما فقد ، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين والمجد فرأوا كل ذلك أوهاماً تلاشت مع الزمان القديم

وغصت المواخير بالرجال ، فأصبحت الفتاة مهملة بعد أن كانت تغذى الشبيبة بحبها الطاهر السامى ، وعند ما احتاجت إلى غذاء ورداء باعت نفسها . فيا للشقاء ويا للعار ! . . لقد أهمل الشاب الفتاة ، وكان فى وسعه أن يستنير وإياها بأشعة شمس الله وأن يقاسمها لقمته مأدومة بعرق جبينه ، ولكنه تركها وسار إلى مزابل الانسانية ليجد هنالك تلك

الفتاة نفسها مثقلة بالهموم شاحبة مضعضعة يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها الابتذال

فى ذلك الزمان ظهر شاعران هما أعظم عباقرة العصر بعد نابليون تخصصا حياتهما لجمع ما تبدد فى الأرض من مبادىء الشقاء والآلام ، فكتب جوته عميد الأدب الجديد (آلام ڤرتر) واصفاً الوله الذى يقود الى الانتحار ؛ ثم عاد فرسم فى (فوست) أعظم صورة تمثل الشر والشقاء . واجتاحت كتاباته فرنسا كلها وهو جالس فى بيته تحوطه السعادة وتخدمه الثروة ، فكان يرسل الينا رشاش قلمه الأسود وعلى شفتيه ابتسامة الأب لبنيه . . .

وجاء بيرون من جهته يرفع صوت الحروب والفجائع ، كأنه لم يجد من حل لسر الوجود غير كلمة العدم المروع

عفوا أيها الشاعران العظيمان ! أنتما الآن ذرات رماد يفترش القبور ، أنتما فى عداد أنصاف الآلهة أيها الشاعران ! وما أنا إلا فتى ضعيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكليزية والألمانية على رؤوسنا حتى سادنا الاشمئزاز برهة ثم عقبه الاختلاج المريع . لا شىء يحول أملاح العواطف الى بارود منفجر كالتلاعب فى مواطن الشك بالمبادىء السامية . وكان جوته برأسه الجبار قد اعتصر كل ما فى الثمرة المحرمة من خلاصة ، فخيل للناس أن من لم يقرأ جوته لا يعرف من الحياة أشياء . ويل لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكاره علامسة أفكار جوته ، فتناثرت ذرات تائهة فى مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود إلا آمال عاثرات تدور بها الأحزان ، فكأن الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخلت طور الاحتضار ، فانحنى عليها المفكرون يجسون مواضع انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندى الذى أجاب من سأله : بم تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى . فتعجب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشىء

الواسعة ؟ ألم تلهمك الروح وأنت المتصوف المعتقد بوحدة الوجود ما يعينك على سكب قليل من العسل فى تلك الكؤوس الرائعة التى نحتها للأجيال ، وقد كانت ابتسامة واحدة منك كافية لاستواء النحل فتنزل بجنبها على شفتيك

وأنت يابيرون : ألم تكن عائشا تحت سماء إيطاليا الجميلة ؟ ألم تكن تناجى أمواج الادرياتيك والى جنبك المرأة التى أحببت ؟

أما الذى أوجه اليك هذه الكلمات الآن ، وما أنا إلا فتى ضعيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكليزية والألمانية على رؤوسنا حتى سادنا الاشمئزاز برهة ثم عقبه الاختلاج المريع . لا شىء يحول أملاح العواطف الى بارود منفجر كالتلاعب فى مواطن الشك بالمبادىء السامية . وكان جوته برأسه الجبار قد اعتصر كل ما فى الثمرة المحرمة من خلاصة ، فخيل للناس أن من لم يقرأ جوته لا يعرف من الحياة أشياء . ويل لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكارهم علامسة أفكار جوته ، فتناثرت ذرات تائهة فى مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود إلا آمال عاثرات تدور بها الأحزان ، فكأن الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخلت طور الاحتضار ، فانحنى عليها المفكرون يجسون مواضع انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندى الذى أجاب من سأله : بم تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى . فتعجب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشىء

وانشطر المجتمع الى فئتين : فئة النفوس المضطربة المتوجعة التائقة الى المثل العليا ، فكان أبناؤها يحنون الرأس ويبكون متلفعين بأحلامهم المؤلمة كأنهم مقصبة تمايل على مستنقع من الشقاء . أما الفئة الثانية فكانت مؤلفة من رجال المادة والشهوات يقفون بلا مبالاة على ركام الملاذ ولا هم لهم غير إحصاء الأموال التي حشدتها أطماعهم . وما كان يتصاعد من هذا المجتمع المؤلف من الفريقين سوى زفرة وضحكة : تلك ترسلها الروح ، وهذه يقذفها الجسد . وكانت الروح تقول في زفرتها :

— إن الدين يتداعى ، وهذه سحب السماء أصبحت غيوماً تتساقط أمطاراً . لقد فقدنا الأمل وحرمنا حتى قطعة من الخشب الأسود نرفعها صليباً تمد أيدي الضراعة نحوها . لقد تلفعت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطالع الفجر ، فكان الشفق يقبض عليها ليصدها عن الارتفاع ، وكأنها شمس الشقاء ألقت الثورة عليها براقع الدماء .

لقد فني الحب واضمحلت الأمجاد ، فما أحلك الظلام في هذا الليل المترامي بأطرافه على الأرض ! واسوف ندرك الموت قبل أن يتداركنا نور الصباح

أما الأجساد فكانت تقول في ضحكتها : — لقد وجد الانسان للتمتع بحواسه ولديه من القطع الصفراء والبيضاء ما يقيس به حق تمتعه بالتكريم . وما الحياة إلا الطعام والشراب والرقاد ؛ أما العلاقات الاجتماعية ، فمنها المودة القائمة على استقراض المال ؛ وقد تجد صديقاً تدفع العواطف به الى هذه التضحية . ومنها صلات القربى وهي نافعة للحصول على الميراث . ومنها الحب ، وما الحب إلا رياضة بدنية . وليست اللذة العقلية إلا نوعاً من الغرور والكبرياء .

وهكذا كان اليأس يتمشى بخطواته الواسعة ذارعاً أرض أوروبا كأنه الطاعون ينتشر من نهر الكانج في آفاق آسيا . وكان شاتوبريان قد قبض على صولجان إمارة الشعر ، فلف اليأس برداء أسفاره ورفعه كالصنم على هيكل تتعالى حوله عبقات البخور فانحنت شبيبة فرنسا على قواها المكبونة يائسة تكرع كأس الآلام حتى الثمالة ، وملأت الأقطار نفثات الأقلام المضالة بأدب لا لون له ، فكأنه رشاش من دم آسن يرسل انقذية مسوخ الحياة

ومن له أن يصف ما كانت عليه المدارس في ذلك الزمان ؟ لقد كان الشك يسود الرجال ؛ أما الشبيبة فقد كانت اجتازت مرحلة الشك واستقرت على الجحود . وكان الشعراء يتغنون بالخيبة وعثرات الآمال . وكان الشبان يتركون مقاعد المدارس ويواجهون الحياة بحياة تطفح بالبؤس وعلى ألسنتهم لعنة الكفر . وكان الطبع الفرنسي المائل إلى المرح يتيل الأدمغة متاعة تحتمل الأفكار الانكليزية والألمانية ؛ غير أن القلوب لم تكن منيعة لتحتمل النضال في الأوجاع فذبلت وانحنت على ذاتها كأنها أزاهر مقصوفة

وهكذا اتجه مبدأ الموت إلى الاحشاء متسربا اليها بهدوء من الأدمغة ، فأنكرنا الخير بعد أن كنا نؤمن بالشر . وبلغ اليأس مرحلته الأخيرة فاستقر على الشعور الميت . وجلس ابناء الخامسة عشرة تحت ظلال الأشجار الزهرية يتجاذبون من الأحاديث ما يهز أشجار فرسايل الهرمة

طوبى لمن لم تدر كهم هذه الأزمنة فنزلوا الى الهاوية وهم يتطلعون الى السماء ! إن من حالات الحياة ما يصدع القلوب بالشقاء فلا تجد هذه القلوب ما يفرج كربها إلا ارسال اللعنات والتجديف

وقف ملحد أمام السماء وقبض على ساعته متحدياً صاعقة الموت ، وقد منح ربه مهلة ربع ساعة ، وبات ينتظر . إنها لفترة ملؤها أشد غضب وأفظع

لذة ، إنها لفحة بدايتها تناهى اليأس تحنك بقوات السماء . وهل كان ذلك الرجل إلا محلوقاً شقياً يتململ تحت الأرجل التى تركله ؟ وهل كان صوته إلا نداء هائلاً تدفع به المحن والآلام ؟ من يدرى ؟ لعل هذا التحدى الموجه إلى السماء كان فى عين من ينفذ الى خفايا القلوب نوعاً من الصلاة ...

وما كانت الشبيبة إلا كهذا الجاحد تفتح لقواها المكبوته منافذ الفرج باليأس . إن من لا يجد أمامه ما يشغل به قواه ليتخذ تسلية له من التجديف فيتهكم على الدين والمجد والحب وعلى كل ما فى العالم ، تلك الوسيلة هى السبيل الذى يتبعه الانسان ليخادع نفسه فيتهكم عليها وهو يجدف على كل شىء

يلذ للمرء أن يضع نفسه فى مصاف الأشقياء حين يحكمه الضجر فيندفع الى الفحشاء لأنها أول ما تخطر على بال العاطلين ، وهى الآلة التى تتلمسها الأعصاب الهائجة لتشد بها على نفسها تسكيناً لاختلاجها

وكان الأغنياء يقولون : لا حقيقة إلا بالثروة وأما ما سواها فأحلام . فلنتمتع بالثروة ولنمت

وكان متوسطو الحال يقولون : لا حقيقة إلا بالسلوان ، وأما ما بقى فأحلام . فلنسل ولنمت . أما الفقراء فكانوا يقولون : لا حقيقة إلا فى العذاب ، وأما ما سواه فأحلام ، فلنجدف ولنمت

إنه لوصف مريع قد يحسبه البعض مبالغة ، وما أنا إذ أورده مندفع بالعداء للانسانية ، فهو وصف للواقع ، وهذا هو البرهان

كل من طالع التاريخ وسبر غور الأسباب التى أدت الى سقوط أمبراطورية روما ، لا بد له أن يرى ما انبعث عن المسيحيين من قوات دمرتها تدميراً . فان العظمة التى تجلت فى هؤلاء المؤمنين أيام جهادهم ومحنتهم كانت قد استحالت الى ضربات قاضيات عند ما صارت القوة الى أيديهم

قال مونتسكيو : « لا يسعنى وأنا أفكر بحالة الشعب وهو رازح تحت استبداد الكهنوت اليونانى إلا أن يخطر ببالى أولئك العبدان الذين أتى هرودوت على ذكرهم ، وهم من كانوا يمخضون اللبن لاستخراج زبدته ، وكان أسيادهم يقتلعون أعينهم كيلا يتلهوا بالمشاهد عن متابعة العمل دون انقطاع . وهكذا كان الكهنة فى روما يمنعون النور عن كل مبصر ، فلم يكن يقرر القيام بحرب أو عقد هدنة أو قرض أو الاتيان بأى عمل دون أن ينظر الرهبنة فيه أولاً ، إن القلم ليكل دون وصف الأضرار التى نتجت عن هذه الأعمال »

على أن مونتسكيو كان يوسعه أن يتم كلامه قائلاً :

(إذا كانت المسيحية قد هدمت العروش ، فانها أحيت الشعوب . إذا كانت قد فتحت للبربر أبواب القسطنطينية ، فانها قد فتحت أيضاً أبواب الأكواخ باسم المسيح . وما كان بالأمر الضرورى أن تحتفظ روما بمجدها التداعى وهى المومياء المحنطة بعطر نيرون والمكفنة بوشاح نيباريوس وقد رعى أحشاءها دود الفساد

إنما عمل المسيحية ، أيها السياسيون ، كان يتجه « إلى إدخال السلام على قلوب الفقراء اليائسين ، وإلى إخراج الأمل من أحشاء المومياء الفاسدة قوة حية تعضد كل مظلوم ، وذلك ما قامت به المسيحية على أنقاض روما ، ولكن ماذا فعل خلفاء هادمى روما بعد مرور السنين ؟ إنهم لبثوا ينظرون إلى الفقير برهقه الغنى ، وإلى القوى يستبد بالضعيف ، ويسمعونه يقول : (إن الأقوياء سيسحقوننى على الأرض ، غير أننى سأقف فى وجوههم عند ما سيحاولون دخول السماء فاشكوهم إلى الله)

هكذا صبر هؤلاء المؤمنون فيما مضى ، ولكن أعداء المسيح وقفوا وصاحوا بالفقير قائلين : إنك صابر تتوقع ظهور العدل ، والعدل لا وجود له . إنك تنتظر البعث لتخلص من الظلم فى الخلود وليس من خلود . أنت تدخر دموع أطفالك ونواح امرأتك لتحملها إلى أقدام عرش الله بعد موتك ، وما بعد الموت من حياة ، فان الله غير موجود)

وعند ما سمع الفقير هـذا جفف أجفانه وقال لامرأته أن تكف عن النواح ، ونادى بأولاده ليقف معهم على الحرق البالية كالثور الهائج ، وصرخ فى وجه الغنى قائلا :

(ما أنت إلا رجل أيها الظالم .)

ثم التفت إلى الكاهن ، وقال له : « لقد كذبت أيها المعزّى »

وهذا ما كان يقصده أعداء المسيح ، ولعلهم حسبوا أنهم يسعدون الفقير بإرساله على سبيل المطالبة بالحرية

ولكن إذا فهم هـذا البائس أن الأغنياء يسلبونه حقه وأن الكهنة يتاجرون بجهله ، إذا ما عرف أن للناس حقاً واحداً فى الحياة وأن الفقر هو الكفر بعينه ، فان إعانه لينحصر حينئذ بقوة ساعده فيهتف قائلا : لأصلينّ الأغنياء حرباً عواناً . إن اللذات للجميع على السواء ، إن الأرض لى أنا أيضاً ما دامت السماء خاوية خالية

أيها المفكرون الذين تقودون الفقير الى هذا الموقف ، أية كلمة تدخرونها لشقائه إذا هو اقتحم المعترك فسقط مغلوباً على أمره ؟

لقد يكون حبكم للانسانية المعذبة قد أهاب بكم الى المناداة بهذه المبادىء ، ولقد يجيء بكم يوم يباركم الناس فيه ، أما اليوم فلا يسعنا أن نرسل البركة إليكم

لقد كان الغنى يقول للفقير فيما مضى : لى الأرض ، فيجيبه الفقير : أما أنا فلى السماء . فبأية كلمة سيجيب الفقير الغنى الآن ؟

ان علل هذا العصر كلها قد نشأت عن سببين ، فان الشعب الذى مر على نورتى سنة ١٧٩٣ و ١٨١٤ قد خرج منهما بجرحين . كل ما كان قد زال ، وكل ما سيكون ليس كائناً بعد . هذان هما السببان ، فلا تبحث عن ثالث لهما

ما حالنا الا حال رجـــل تداعى مسكنه الى الحضيض وقد بعثر أنقاضه ليقوم ببناء جديد . شمر الرجل عن ساعد الجد وبدأ العمل وهو منتظر ورود الحجارة البيضاء الجديدة لرفع البناء ، ولكن قيل له ان الحجارة البيضاء الجديدة بعيدة المنال ، فعليه أن يصلح الحجارة السوداء القديمة . وسطا الذهول على هذا العامل الذى لا يريد أن يرفع بيته بمواد أخلقها الدهر وموهتها الأيام بالسواد ، ولكن ما العمل والمحجر عميق ولا أدوات لديه لاستخراج الحجارة منه

وقف المتفرجون حوله وقالوا له : استخرج الحجارة من حين الى حين واشتغل على مهل

وتكاثرت النصائح تبـذل لهذا الرجل وهو واقف تحت سماء الله . لقد تهدم بيته القديم ولا بيت جديد له ، فهو عرضة للحر والقر ، لا يعلم أين يعمل وأين يرتاح وأين يأكل وأين ينام وأين يحيا وأين يموت ، وهو متعب مضطرب ، وأطفاله يبكون فى امرأتهم فى العراء

ومَن أشبه بهذا الرجل منا ؟

أى بنى القرون المقبلة ! إنكم ستنحنون فى زمانكم على المحاريث تمزق أحشاء الأرض فتبتسم

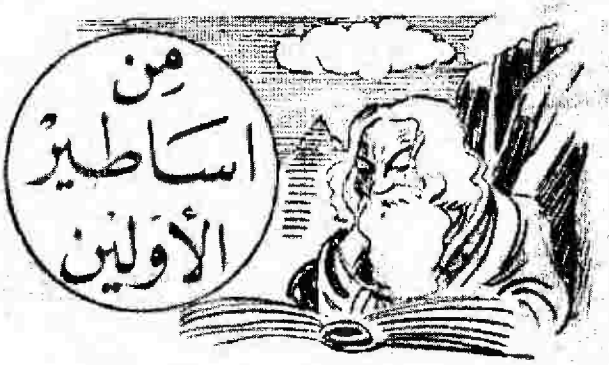

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

وانثال الحنان في فم ميرفا ، إذ هي تجيب الفتى المحزون :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بني الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك اللئام كيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له

لسهاماً مسمومة مسمومة سقاها أبي بمد إذ رفض أن يسقيها إيلوس بن مرمريس[1] ... وهو لو صوبها إلى أولئك المفاليك لأبادهم ... يا رحمتا له ! إن أحداً غير — الآلهة — لا يعلم إن كان ما يزال حياً يرزق أو هو قد ابتلعه اليمّ أو عاجلته المنون ... تلمّاك ! يا ابن أعز الناس عليّ ! إصغ لي وع الذي أقول : إنك لست طفلاً بعد ! فلم لا تشمر عن

(١) أورد هنا هوميروس أسطورة لا داعي لذكرها

لكم بمروجها ونباتها أماً بارة بالعاملين تغني لهم وهي تجر برود الأنوار في الصباح . في تلك الأزمنة سيكلل العرق جبينكم بالفرح والحبور ، وإذ تسرحون أنظاركم على الآفاق الواسعة ، فانكم لن تجدوا في حقول الانسانية إلا السنابل تتماوج متساوية قد رصعتها الأزهار

في ذلك الحين ، عند ما ترفعون رؤوسكم لتؤدوا الشكر لله ، أيها الأحرار ، لأنه أوجدكم في عصر الحصاد. افتكروا فينا نحن الراحلين وتذكروا أن ما تتمتعون به من عناء وسلام قد كلفنا كثيراً من الشقاء

ترحموا علينا أكثر مما تترحمون على سائر من تقدموكم في مراحل الأجيال ، لأننا تحملنا أوجاع أجدادكم دون أن نتمتع بما كان لهم من عزاء ...

فيكتس فارس

ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه ما دام أوديسيوس لم يؤب ؟ لِمَ يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تليماك : نبيء القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلاً فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعد ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولاً إلى (پلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى إسپارطة حيث صاحب هذه الداهية منلايوس[1] ... أقلع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر ... ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرىء المقدام أورست الذى قتل قاتل أبيه[2] ، وفيهم أمه ... بوركت يا أورست !! بوركت يا أورست ! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد فى العالمين أثره ! ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجالى وسفنى . لقد بعدت طويلاً عنهم ... وكلى يقين يا بنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتتكل ! »

وحين انتهت ميرڤا من هذا الحديث ، حدجها تليماك وقال : « أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فىّ ضميراً أنت أحييته . فألف شكران لك ... أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن ميرڤا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً « فإذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منتس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً فخماً يضرب الهواء بجناحيه ثم يعلو ويعلو ... فيكون فى السماء ويغيب عن ناظريه ! !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى السماء

وانطلق تليماك حيث جلس الفسّاق يستمعون إلى أغانى فيميوس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكى ... وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير ذكريات شجوها وشجنها ... وتثور النخوة فى قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماه ؟

(١) زوج هيلين أخت پلوب والتى كانت سبب حرب طروادة

(٢) أجاممنون

وماوقوفك هذا الوقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغنى ؟ دعيه يتغنى ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية القضاء وهُزُوَّ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإنى لصاحبهــا بعده ... فادخلى ولبدخل معك قيانك ولتقمن جميعاً بشؤون المنزل ، ولْتَتَخلِينّ إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عــدا ذلك للرجال ... لى ... لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! »

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى اذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تلماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها العشّاق ! ياعشاق أمى ! خذوا فى لهوكم ، وتمتعوا قليلاً أو كثيراً ، فاذا كان الغد فاجتمعوا فى الساحة الكبرى ، فان لى كلاماً معكم ... سأطلب اليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أتسمعون ؟ لقد طالمــا أتلفتم لنا زاداً وعتاداً ... ألا فالتمســوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ وانقيموا أفراحكم وولائمكم فى غير هذا المكان ؛ فان أبيتم فانى مستعين بالآلهة عليكم ، واقتص منكم السماء بما جرحتم ... »

وما كاد يفرغ من قالته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتــادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تلماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ... يا لشؤم اليوم الذى تتوجك السماء ملكا فيــه على إيثاكا ... عرش آبائك وأجدادك ! »

ويجيب تلماك : « ليس أحب إلى من الملك حين تخلعه علىّ السماء ... غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا غرو ... فان هذا من حقى ! »

وأجابه يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تلماخوس ... أما ملك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة : هل من قِبل أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لَدَيْنا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكنا لمحناه من بعد ، عليــه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تلماخوس وفيم قدم ؟ ... »

وأصلح تلماك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريماخوس : إن يقينى أن أبى قد انتهى ... وان تغرينى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بهــا المنجمون ... أما هــذا الضيف ... ف ... هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير البحارين وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

قالها تلماخوس وهو أعرف النــاس بضيفه ؛ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تلماك إلى مخدعه بالطابق العــلوى . حيث كانت مرضعه يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسُّرج . يا لها من أنثى طيبة تخلص لمولاها وتحنو عليه ... اسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! ... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تلماك ليلةً نابغيةً ممتلئةً بالهواجس والأفكار

تليماك يجادل العشاق

ويبحر باحثاً عن أبيه

خلاصة ما تقدم

« بعد سقوط طروادة عاد كل أبطال الأغريق الى أوطانهم ما عدا البطل العظيم أوديسيوس الذى ضل طريقه فى البحر وظل سنين طويلة يخبط فى اليم على غير هدى وكانت زوجته بنلوب أحب هيامن من أجمل الغادات اليونانيات فطمع أمراء البلاد المتاخمة فى التزوج منها ، ولكنها رفضتهم جميعاً ثم لجأت الى الحيلة معهم حينما لجأوا هم الى الغطرسة وأقبلوا بقضهم وقضيضهم ، فعسكروا فى حدائق قصر أوديسيوس وردهاته ليضطروها أن تختار منهم زوجاً لها . ذلك أنها اصطنعت لنفسها منسجاً وراحت تعمل عليه ووعدتهم أنها حين تفرغ من نسيجها فانها ستختار منهم بعلاً لها . ولكن هذه الحال لم ترض ميزفا ربة الحكمة ونصيرة أوديسيوس . فسألت أباها كبير الآلهة أن يساعد هذا البطل وأن يتأذن فيأمر بعودته الى وطنه . وكان أوديسيوس فى هذه الآونة عند عروس الماء كالبسو التى أغرمت به وافتتنت بقوته فأبقته لديها وراحت تراوده عن نفسه ؛ فأرسل كبير الآلهة ولده هرمز الى هذه العروس يأمرها باعداد سفينة يبحر البطل عليها الى بلاده — أما ميزفا فذهبت بنفسها الى تليماك ابن أوديسيوس — فى صورة أمير من أمراء البحر يدعى منتس ، وهناك أكلت مع الفتى ثم حرضته على طرد العشاق المجرمين من قصر أبيه ، وبعد أن فرغت من حديثها معه حولت نفسها الى نسر عظيم وضربت الهواء بجناحيها وغابت فى السماء ، فتأكد الفتى أن الذى كان يكلمه ليس أمير البحر منتس ، ولكنه إله عظيم أقبل ليمد له يد المساعدة فى البحث عن أبيه — وقد خطب تليماك العشاق فطلب إليهم أن يجتمعوا فى الغد فى الردهة الكبرى ليطلب منهم أن يغادروا القصر وأن يذهبوا الى جده فيخطبوا إليه ابنه بنلوب إن أرادوا ، ثم ذهب ليستريح فى مخدعه الى الصباح »

موّهت أورورا [١] ، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصاح

ميزفا

من شأنه ، وتقلد سيفه [١] ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه فى هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الاشرار عشاق بنلوب ؛ وتلبث قليلا وفى القلب لظى ، وفى النفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا ينسلون الى الردهة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفى يمينه رمح ظامئ الى تلك الدماء النجسة التى تتدفق فى عروق الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان يتهديان وفى عينى كل منهما جمرتان . وكانت ميزفا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترقرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، انقذف منه

(١) ربة الفجر فى الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أبولو وهادية عربته — الشمس — عندما تبزغ من أبواب المشرق

(١) فى الأصل (صفيحته) وهى السيف العريض القصير Faujchion

الرعب فى قلوب أعدائه ، حتى ليبهرهم أن يروا فى تليماك ذاك الضرغامة المختال

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتمل فى رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجيتوس بعينه . . . إيجيتوس المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس فى أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك فى حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر . . . ولكنه . . وا أسفاه ! . لم يعد إلى أوطانه فى العائدين ، بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء البحار حيث أكله السيكلوب الوحش فيمن أكل (١) . وقف إيجيتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من عشاق بنلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا ندعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع . فمن الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بموئل أحمد ؟ لينهض باركته السماء فيحدثنا عما دعانا اليه »

وتناول تليماك صولجانه من قواصه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم ، وجهر فقال :

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا ... تليماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل ... لقد دعوتكم لأشكوَ إليكم بثى وحزنى . . . لا لأزف إليكم

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب التاسع

بُشريَات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصائره ! لأربوس : لقد فقدت والدى ، ووالد الأيثاكيين جميعا ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء المشاق (١) الذين يطمعون فى الزواج من أمى ، غير متقين فى عرضى إلا ، ولا راعين لأبى ذمة ، يُذَبِّحون النَّعم (٢) ، ويربغون (٣) الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ، ولا يبالون أن يَهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملأى ، ويبيت غيرهم على الطَّوى ... ! لقد استباحوا هنا كل شىء ، ما دام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل إيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى ، ويذهبوا من فورهم إلى جدى فيخطبوا اليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا ، فهو بها أولى وبشأنها أحق ... إنكم ضعفاء أيها الايثاكيون الأوفياء ... ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم . . . فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى ... والآن ، أوجه إليهم قولى . . ، ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها المشاق ... اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يُعيِّركم به جيرانكم : واخشوا قارعة تحل عليكم من أربابكم ... واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلقفتكم الصواعق ... يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأولمب ! وربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقضى البقية الباقية من أيامى فى شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصراً على المشاق فقط ، بل ضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك

(٢) ناشئة

(٣) يدسمون

فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تذهبون بثروتي أباديد ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمري دون مقابل ؟ ! إذهبوا ! إذهبوا ، ودعوا تليماخوس البائس تحز في نفسه أشجانه ، وتبري اصطباره بلواه ! ! »

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكي ، وكأنما انهمرت دموعه في نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة . حتى نهض أنتنيوس آخر الأمر فقال :

« لله بيانك يا تليماخوس ! لقد كنت مصقعاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا كل اللوم ، حين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعة ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحيي في نفوسنا الآمال ، وتذكي فينا الأماني : لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخُلَّب ، وتتراءى كالسراب المضلل ! لقد تخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهي تغرونا ، وتقول : « أيها الاغريق : لقد قضى أوديسيوس ما في ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبا لبرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ، أفليس أخلق بي وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب ، ليكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة في فم الاغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته » . ولقد أجبنا سؤلها وتلبثنا طويلاً ، نرجو لو تفرغ من نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهي تنقض غزلها أنكاثاً في ضوء المشاعل ، في جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هي الحقيقة يا قوم ! والآن ! فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هي لها بعلا ... أما إذا عكفت على ختلها بنا ، فلتثق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تيرو ، أو أكيس من ألكمينا ، أو أبرع من ميسينية(١) ... حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح أنعامك ، وإراقة أزوادك ، ومعاقرة خمرك ، حتى تختار لنفسها ! أو ... فليَمْ فزع هذه الدار ، ولينضب معين خيرها . »

وشاعت الكبرياء في كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال :

« أنتينوس ! ماذا أصابك ؟! كيف تسألني أن أقهر أمي التي غذتني ونشأتني على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذي لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبي وأثير غضب الآلهة على إن فعلته ! ! إنها ستدعو إرينس(٢) كي تنتقم لها مني ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً ! لا ويحك أيها الرجل ! لن أقول لها شيئاً ... بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ! فإما أجابت طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين ... اذهبوا ... فأولموا ولائمكم في غير هذا القصر ، وأريقوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون !! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فإني سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لي منكم ، فهي محيطة بكم ! ... »

(يتبع)

دريني خشبة

(١) من ربات الفنون

جولات فى الشرق الأقصى

فتاة اليابان

ترجمة الأديب أحمد فتحى مرسى

إن كلمة « الطاعة » التى لها حظ كبير من حياة الرجل اليابانى ، هى كل حياة الفتاة اليابانية ؛ فالفتاة اليابانية تتلقن واجباتها فى سن مبكرة من الطفولة . وفى اليابان كتاب عتيق تستظهره اليابانيات ، ولا يخلو منه منزل ما ، اسمه « الدراسة العالية للمرأة » ، ويشمل مجموعة من التقاليد والواجبات ، والمثل العليا للأخلاق . وقوام هذا الكتاب « الطاعة » ؛ فتراه يقول إن على الفتاة اليابانية ثلاثة واجبات فى الطاعة : فى مرحلتها الأولى وهى فتاة يجب أن تمتثل لأوامر والدها ، وفى مرحلتها الثانية وهى متزوجة يجب أن تنصاع لرغبة زوجها ، وفى الثالثة وهى أرملة يجب أن تخضع لإرادة ابنها الأكبر

تجتاز الفتاة اليابانية مرحلة الطفولة فى سرور ومرح ، بين رعاية والديها ، وعناية أهلها . وهى دائماً هادئة الطبع ، رزينة النفس ، حتى فى لعبها ؛ فاذا غضبت لا تعول ولا تبكى ، وإذا فرحت لا تضج ولا تصيح ، فهى تنشأ وتترعرع وعلى ثغرها ابتسامة هادئة تقابل بها كل إنسان

والفتاة اليابانية فى المدرسة تدرس الأخلاق قبل أن تدرس العلم ؛ فاذا دخلت المدرسة تراها تنحنى لأستاذها حتى تكاد تلمس الأرض بأنفها ، — وهذه أقصى درجة للتبجيل والاكبار فى اليابان — فيرد الأستاذ التحية بأحسن منها ، ثم تجلس الطفلات فى مقاعدهن ، ويفتحن الكتب ، ويبدأن الدرس

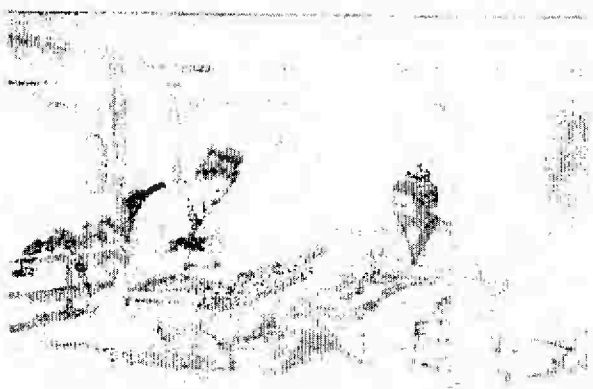

درس فى الكتابة

والكتب فى اليابان غريبة فى كل شىء ، فلن تثير دهشتك فى غرابة حروفها فحسب ، بل إنك إذا أردت أن تعثر على أول صفحة فى الكتاب وجدتها الأخيرة فيه ؛ وإذا رغبت فى قراءته فانك تقرأه من آخره إلى أوله ، لا من أوله إلى آخره ؛ وإذا حدثتك نفسك بتتبع كلمات سطر من السطور ، فانك تراها تبدأ فى أعلى الصفحة وتنتهى فى أسفلها ، أى أن الكتابة فى اليابان لا تبدأ من اليمين أو الشمال كما فى سائر اللغات ، بل تبدأ من أعلى إلى أسفل

وتدرس الطفلة اليابانية فى المدرسة ما تدرسه الطفلة الغربية من المواد المختلفة ، فضلاً عن أنها

تدرس التقاليد والأخلاق وحسن معاملة الغير دراسة دقيقة واسعة ، فأهل اليابان لا يرون أن الأخلاق والمعاملة والتقاليد تعتمد على الذوق والشعور ، بل يرون أنه لابد للطفل من دروس طويلة فى الأخلاق والتقاليد ، حتى لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن أصولها

فكم مرة يجب أن ينحنى ؟ ... وكيف يحيى الغرباء ومواطنيه على اختلاف طبقاتهم سواء أكانوا من عالية القوم أم من الطبقات المتوسطة ، أو من الطبقات الدنيا ... فكل طبقة من هؤلاء لها طابعها الخاص ، ولها تحيتها الخاصة ، ولها تقاليدها الخاصة . ويقال إن من السهل معرفة الطبقة التى تنتمى إليها الفتاة اليابانية من الطريقة التى تقدم بها الشاى إلى الضيف

تقديم الشاى إلى الضيف

ومن تنسيق الزهور فى اليابان من الدراسة المنزلية التى تتلقاها الفتاة عن أمها وتقضى فيها معظم أوقات فراغها ، فتهذب ذوقها ، وتربى فيها روح التنسيق ، وحسن الاختيار ، وجمال الترتيب مما لا تستغنى عنه المرأة فى حياتها المنزلية ...

وقد جرت العادة فى اليابان أن يقص شعر الطفلة بعد ولادتها بقليل ، حتى إذا بلغت الثالثة من عمرها نما الشعر فى غزارة حتى تنوس ذوائبه على أكتافها . وترتدى الطفلة اليابانية فى صغرها ملابس الطفولة ، وهى ملابس ضيقة مختلفة الألوان ، حتى إذا بلغت السابعة من عمرها عوملت معاملة المرأة الكاملة ، فتلبس الملابس الحريرية الواسعة ، وتختار الألوان الزاهية ، وترتدى الثياب الفضفاضة الموشاة بخيوط من الذهب ، أو رسوم من الزهر ، تجمع بين تناسق الألوان وإتقان النسج

وليست هذه المرحلة من عمر الفتاة اليابانية هى مرحلة التبرج والتزين فحسب ، بل لها أيضاً أن تتراور وصديقاتها ، وتقضى معهن أوقات الصفو واللهو ، وتذهب بصحبتهن إلى الهياكل والمعابد ، حتى إذا تزوجت نبذت كل ذلك ظهريا ، وهجرت هذه الحياة اللاهية المرحة

فواجبات الزوجة اليابانية ، وتفانيها فى خدمة زوجها وأطفالها تشغلها عما عداها من ضروب التسلية واللهو ؛ ولا تتحرر الزوجة من هذه القيود إلا عندما يشب ابنها ويتزوج ، حينئذ تلقى على زوجته تبعات المنزل ، وتطرح عن ظهرها ذلك العبء الذى حملته زمناً طويلاً ، وهذا هو الفجر الثانى فى حياة المرأة اليابانية ، فنراها تعاود حياتها الأولى ، وتستعيد ذكريات الشباب المرح ، فتزور الهياكل ، وتظهر فى الحفلات ، وترتاد الملاهى

والفتاة اليابانية تتزوج فى سن مبكرة ، فلا تبلغ

العشرين من عمرها — دون زواج — إلا الفتاة العاثرة الحظ ، وعندئذ تنقطع عن كل شيء آخر إلى خدمة زوجها ، وتتجه بكليتها إلى حياة الجد والنشاط ، فتنبذ الثياب الزاهية الملونة ، وتعاف الملابس الفضفاضة الزينة ، وترتدي ثوباً أبيض شفافاً تتجلى فيه كل معاني البساطة

البيت اليابانى

ويتم الزواج في اليابان ، دون جلبة ولا ضجة ، كغيرها من الأمم ، فليست هناك هذه الأفراح العامة ، ولا تلك التقاليد الدينية ، وكل ما هنالك أن الزوج وعروسه يشتركان في شرب ثلاث كؤوس من الشراب الوطني الياباني المصنوع من الرز (الساكي) Sake فينال كل منهما رشفة من كل كأس ، ويعتبر اشتراكهما في شرب هذه الكؤوس بمثابة بدء اقتسامهما حياتهما المقبلة

وهنا يجب على العروس أن تودع أيامها السعيدة وثيابها الجميلة وتستقبل حياة شاقة جديدة لا عهد لها بها من قبل ... وإذا كان الزوج يعيش مع والديه فان من الشرف للعروس أن تلبي طلباتهما ، وتنصاع لرغبتهما ، وتنزل على ارادتهما ، وهما بدورهما يعطفان عليها كل العطف ، فلسنا نلمس في اليابان أثراً لذلك التنافر الذي يحدث عادة في سائر الممالك بين الأم وكنتها ، فان الأم اليابانية التي جبلت على الطاعة ، وانطبعت على الحنان وصفاء القلب لا ترى في زوجة ابنها سوى ابنة ثانية لها قضى الله أن تستريح على يديها من عناء الأعمال ؛ فهي تنظر اليها دائماً نظرة الأم الشفيقة لابنتها البرة

وقد بلغ من وفاء الزوجة اليابانية لزوجها أنها عادة تشوه وجهها ، وتسود أسنانها ، حتى لا تلفت نظر غيره . وعلى رغم أن هذه العادة انقرضت في اليابان ولا سيما بين الطبقات العليا التي تأثرت كثيراً بالجانب الغربي ، إلا أن المتجول في ربوع اليابان كثيراً ما يرى هؤلاء النساء ذوات الأسنان السوداء في كثير من جهاتها

وإذا فقدت اليابانية زوجها فانها تظهر عليه حزنها العميق وأساها البالغ ، فتراها تحلق رأسها ، وترتدي الداكن من الثياب ، وتبدو في منظر كئيب حزين . والمثل الياباني يشبه لنا الأرملة اليابانية بالغراب ، والزوجة اليابانية بالحمامة ، والفتاة اليابانية بطير من طيور الجنة ؟

(عن الانجليزية) أحمد فهمي مرسي

اعتذار

منع ضيق الوقت وعوادي الأشغال عن نشر شيء من (هيلوز الجديدة) في هذا العدد ، فأرجأناه الى العدد المقبل فنرجو من قرائنا المعذرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسي رقم ٩ بالقاهرة